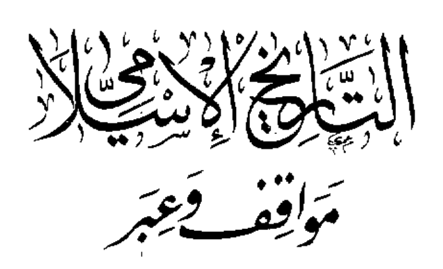




الجزء السابع

تأليف
دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر

بين صلح الحديبية وفتح خيبر

١ – مواقف جهادية في خبر أبي بصير –

أخرج الإمام البخاري خبر أبي بصير في خبر الحديبية الطويل من حديث عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان قالا : ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة ، فجاءهُ أبو بصير رجلٌ من قريش وهو مسلم[١] ، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العهد الذي جعلت لنا[٢] ، فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يافلان جيداً ، فاستلَّهُ الآخر فقال : أجل والله إنه لجيدٌ ، لقد جربتُ به ثم جربتُ به ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فامكنه منه ، فضربه حتى برد، وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآهُ : لقد رأى هذا ذُعراً ، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قُتل والله صاحبي وإني لمقتول .

فجاء أبو بصير فقال : يانبي الله ، قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ، ثم أنجاني الله منهم . قال النبي ﷺ : ويلُ أمِّه مسْعَرَ حرب لو كان له أحد ، فلما سمع ذلك عرف أنه سيردهُ إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر .

---

(١) هو عتبة بن أُسيد بن جارية كما في رواية ابن إسحاق .

(٢) في رواية ابن إسحاق « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولايصلح في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق إلى قومك ، قال : يارسول الله أتردَّني إلى المشركين يفتنوني عن ديني ؟ قال : يا أبا بصير انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا .

قال وينفلت منهم أبو جندل بن سُهيل فلحق بأبي بصير ، فجعل لايخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة ، فو الله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها . فقتلوهم وأخذوا أموالهم . فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل فمن أتاهُ فهو آمنٌ فأرسل النبي ﷺ إليهم[1] .

في هذا الخبر مواقف :

أولاً : نموذج عال للوفاء بالعهد والالتزام ببنود الصلح من رسول الله ﷺ ، وفي ذلك مراعاة للقواعد الأخلاقية العامة التي تترتب عليها مصلحة المجتمع الإسلامي والدعوة الإسلامية ، وذلك أمر مقدم على مراعاة المصالح الفردية التي يترتب عليها إنقاذ فرد أو أفراد من المسلمين ، فإن خيانة العهود وإن كان الدافع إليها تحقيق مصلحة لبعض المسلمين مما يثلم سمعة المسلمين الأخلاقية ، الأمر الذي يترتب عليه الصد عن دين الله تعالى ، بإحجام بعض الكفار عن الدخول فيه لهذا السبب ، فحرص النبي ﷺ على الوفاء للكفار بما عاهدهم عليه ، وردَّ أبا بصير ردا جميلا فتح له الأمل بما بشره به من قرب فرج الله تعالى وخروجه هو وأمثاله من الواقع السيء الذي هم فيه .

ثانيًا : اغتنام كل الفرص الممكنة لتسخيرها لصالح دعوة الإسلام ودولته ، فحينما رأى رسول الله ﷺ من أبي بصير شجاعة ودهاء دفَعَه ليكون هو وأمثاله مشعلاً لمعارك خاطفة تزعج الكفار وتجعلهم يتنازلون

(١) صحيح البخاري ، كتاب الشروط ، رقم ٢٧٣٢ ، (٥ / ٣٣٢) .
وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه – سيرة ابن هشام / ٣/ ٤٢٦ – .
وأخرجه البيهقي بإسنادين من حديث الزهري – دلائل النبوة ٤/ ١٧٢ – .

بمحض اختيارهم عن شرطهم الجائر الذي يقضي بردِّ من خرج منهم وإن كان مسلما ، فقال لأبي بصير كلمته العظيمة ذات الأثر البالغ في حسم الموقف « ويل امِّه مسعَرَ حرب لو كان له أحد » .

وقد فهم أبو بصير التلويح حينما لم يكن النبي ﷺ قادراً على التصريح لقيام الهدنة بينه وبين الكفار ، فاختار مكانًا صالحا لرصد تجارة قريش وانضم إليه كل من كان على شاكلته وأبرزهم أبو جندل بن سهيل ابن عمرو فأقضُّوا مضاجع المشركين وأفقدوهم هدفهم الأول من قبول الصلح وهو الحصول على طريق آمن لتجارتهم نحو الشام ، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ منكِّسي رؤوسهم خاضعين يرجونه أن يؤوي كل من خرجوا إليه مسلمين ، وأعلنوا تنازلهم عن شرطهم الجائر .

وتحققت بشارة النبي ﷺ لأبي بصير وصحبه بأن الله تعالى سيجعل لهم فرجا ومخرجا .

وهكذا تبدو سياسة رسول الله ﷺ العملاقة إلى جانب سطحية التفكير السياسي لدى زعماء المشركين ، فقد كان ذلك الشرط الذي اشترطوه تعنُّتًا واستعلاءً وبالاً عليهم ، حيث سبب لهم حروب عصابات لم يحسبوا لها حسابا ، وظهرت نتائج الصلح الباهرة لصالح المسلمين ضد أعدائهم .

ثالثًا : كان أبو بصير عتبة بن أُسيْد رجل حرب من الدرجة الأولى ، ظهرت شجاعته ومهارته الحربية حينما تغلَّب على رجلين مسلحين وهو أعزل من السلاح ، ثم في استيعابه إشارة النبي ﷺ الحربية وتطبيقها أكمل تطبيق ، مع ما في ذلك من مغامرات تحتاج إلى قدر كبير من الجسارة والشجاعة .

وهكذا ترفَّع أبو بصير عن أن يبقى خاضعا ذليلا تحت الكفار حتى كَوَّن من جماعته عصابة قوية تتعامل مع المشركين معاملة النِّدِّ للند ، حتى اضطروا إلى الاستشفاع بالنبي ﷺ كي يؤوي أفراد تلك العصابة ليستفيدوا من الصلح الذي عقدوه مع المسلمين .

وهنا وقفة تدل على عظمة الإسلام وقوة تمسك معتنقيه به ، فلو أن هذه المصيبة التي حصلت لأبي بصير من رده إلى المشركين بعدما وصل دار المسلمين حصلت مع رجل من أهل الدنيا و قامت به حكومة من حكوماتها فماذا سيكون موقف هذا الرجل ؟ ! .

إنه سيكفر بمبادئ هذه الدولة وسيصفها بالعجز والضعف وسيتحول حالاً إلى عدوٍّ لها بعدما جاء محبًا ومناصراً لها .

لكن أُسَيْدًا زاد إيمانا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وتحول من جندي عادي في جيش المسلمين لوآوَوْه إلى قائد كتيبة أقضَّت مضاجع المشركين وأرغمتهم على تغيير سياستهم ، ثم ظل على الولاء الكامل لرسول الله ﷺ والمسلمين .

إنه الإيمان بهذا الدين العظيم إذا وقر في القلب لا تزيده المحن إلا رسوخا وتمحيصا .

إن الإيمان الصلب لاتؤثر عليه العواصف العاتية ، بل تزيده صلابة وقوة ، وتفجِّر في نفس صاحبه الطاقات الكامنة فينطلق بقوة نحو تعمير الحق وتدمير الباطل .

* * *

٢ – مغامرة جريئة وتضحية خالده –

(غزوة ذات القَرَد)

أخرج الإمام مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ . . ثم ذكر شيئا من خبر الحديبية إلى أن قال : ثم قدمنا المدينة فبعث رسول الله ﷺ بظهره [١] مع رباح غلام رسول الله ﷺ وأنا معه . وخرجتُ معه بفرس طلحة . أُنَدِّيه مع الظَّهر [٢] . فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله ﷺ . فاستاقهُ أجمع . وقتل راعيه .

قال فقلت : يارباحُ ! خُذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله . وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرحه . قال : ثم قمتُ على أكمة فاستقبلت المدينة . فناديت ثلاثًا : ياصباحاه! ثم خرجتُ في آثار القوم أرميهم بالنبل . وأرتجزُ . أقولُ :

أنا ابن الأكوع   واليوم يومُ الرُّضَّع [٣]

فألحقُ رجلاً منهم . فأصُكُّ سهمًا في رحله ، حتى خلص نصل السهم إلى كتفه . قال قلت : خُذها

أنا ابن الأكوع   واليوم يومُ الرُّضَّع

قال : فو الله ! ما زلت أرميهم وأعقرُ بهم [٤] . فإذا رجعَ إليَّ فارس

(١) الظهر الأبل .

(٢) أنديه أي أنتقل به بين الماء والمرعى مع الإبل .

(٣) جمع راضع وهو اللئيم ، وأصله الذي يرضع حليب أبله لكي لايسمع الناس حلبه ، والمعنى : اليوم هلاك هؤلاء اللئام .

(٤) أي أقتل خيلهم .

أتيتُ شجرةً فجلستُ في أصلها . ثم رميته . فعقرت به . حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا في تضايقه ، علوت الجبل ، فجعلت أُرَدِّيهم بالحجارة . قال : فمازلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلَّفته وراء ظهري . وخلَّوا بيني وبينه . ثم اتبعتهم أرميهم . حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بُردةً وثلاثين رُمحًا . يستخفُّون . ولا يطرحون شيئًا إلا جعلت عليه آرامًا [١] من الحجارة . يعرفها رسولُ الله ﷺ وأصحابه . حتى أتوا مُتضايقًا من ثنية[٢] فإذا هم قد أتاهم فُلانُ بن بدر الفزاري ، فجلسوا يتضحون (يعني يتغدون) ، وجلست على رأس قرن[٣] .

قال الفزاري : ماهذا الذي أرى ؟ قالوا : لقينا من هذا البرح . والله! ما فارقنا منذ غلس . يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا . قال : فليقم إليه نفر منكم أربعةٌ ، قال : فصعد إلي منهم أربعةٌ في الجبل ، قال : فلما أمكنوني من الكلام قال قلتُ : هل تعرفوني؟قالوا : لا . ومن أنت ؟ قال قلتُ : أنا سلمة بن الأكوع والذي كرم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته . ولا يطلبني رجلٌ منكم فيدركني . قال أحدهم : أنا أظُنُّ . قال : فرجعوا .

فما برحتُ مكاني حتى رأيتُ فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر . قال : فإذا أولهم الأخرمُ الأسدي . على إثره أبو قتادة

(١) الآرام هي الأعلام ، وهي حجارة تجمع وتنصب في المفازة ليهتدي بها . واحدها إرم كعنب وأعناب .

(٢) الثنية العقبة والطريق في الجبل . أي حتى أتوا طريقا في الجبل ضيقة .

(٣) هو كل جبل صغير منقطع عن الجبل الكبير .

الأنصاري . وعلى إثره المقدادُ بن الأسود الكنديُّ . قال : فأخذت بعنان الأخرم . قال : فولوا مدبرين . قلتُ : يا أخرمُ احذرهم . لايقتطعوك حتى يلحق رسولُ الله ﷺ وأصحابه . قال : ياسلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتعلمُ أن الجنة حق والنار حقٌ ، فلاتحُل بيني وبين الشهادة . قال : فخليتهُ . فالتقى هو وعبدُ الرحمن [١] . قال : فعقر بعبد الرحمن فرسهُ . وطعنهُ عبد الرحمن فقتلهُ . وتحوَّل على فرسه ولحق أبو قتادة ، فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن . فطعنه فقتلهُ . فــو الذي كرم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجليّ حتى ما أرى ورائي من أصحاب محمد ﷺ ولاغبارهم شيئًا . حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماءٌ . يقالُ له ذا قرد . ليشربوا منه وهم عطاشٌ . قال : فنظروا إليَّ أعدُو وراءَهم . فحلَّيتهم عنه (يعني أجليتهم عنه) فما ذاقوا منه قطرةً .

قال : ويخرجون فيشتدون في ثنية . قال : فأعْدو فألحقُ رجلاً منهم . فأصكُّهُ بسهم في نُغْض [٢] كتفه . قال قلتُ : خذها وأنا ابن الأكوع . واليوم يومُ الرضع . قال : ياثكلته أمهُ ! أكوعه بُكرةَ [٣] . قال قلت : نعم . ياعدو نفسه أكوعك بُكرة . قال : وأردَوا [٤] فرسين على ثنية . قال : فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ . قال : ولحقني عامرٌ بسطيحة فيها مذقة من لبن [٥] وسطيحة فيها ماء . فتوضأتُ وشربتُ

(١) يعني الفزاري قائد القوم المعتدين .

(٢) هو العظم الرقيق على طرق الكتف ، سمِّي بذلك لكثرة تحركه .

(٣) يعني أنت الأكوع الذي يلاحقنا من أول النهار .

(٤) أي أتعبوهما حتى سقطا .

(٥) السطيحة إناء من جلود ، والمذقة قليل من لبن ممزوج بماء .

ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي حلأتهم عنه . فإذا رسول الله ﷺ قد أخذ تلك الإبل وكل شيء استنقذته من المشركين وكل رمح وبردة . وإذا بلال نحرَ ناقةً من الإبل الذي استنقذتُ من القوم . وإذا هُوَ يشوي لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها .

قال قلتُ : يارسول الله ! خلّني فأنتخبُ من القوم مائة رجل . فأتبع القوم فلا يبقى منهم مخبرٌ إلا قتلتهُ قال : فضحك رسولُ الله ﷺ حتى بدت نواجذهُ في ضوء النار . فقال « ياسلمة ! أتُراك كنتَ فاعلا؟ » قلت : نعم . والذي أكرمك ! فقال « إنهُمُ الآن ليُقْرَونَ[1] في أرض غطفان» قال : فجاء رجلٌ من غطفان . فقال : نحر لهم فلانٌ جزوراً . فلما كشفوا جلدها رأوا غباراً . فقالوا : أتاكم القومُ . فخرجوا هاربين .

فلما أصبحنا قال رسولُ الله ﷺ « كان خير فُرساننا اليوم أبو قتادة . وخير رَجَّالتنا سلمة » قال : ثم أعطاني رسولُ الله ﷺ سهمين : سهم الفارس وسهم الراجل . فجمعهما لي جميعا . ثم أردفني رسولُ الله ﷺ وراءه على العضباء[2] . راجعين إلى المدينة .

قال : فبينما نحنُ نسير . قال : وكان رجلٌ من الأنصار لايُسبقُ شدّاً[3]، قال : فجعل يقولُ : ألا مُسابقٌ إلى المدينة ؟ هل من مُسابق؟ فجعل يُعيدُ ذلك . قال : فلما سمعتُ كلامهُ قلتُ : أما تُكْرِمُ كريمًا ، ولاتهابُ شريفًا ؟ قال : لا . إلا أن يكون رسولُ الله ﷺ . قال قلت :

---

(١) أي يضافون .

(٢) العضباء هي ناقة النبي صلى الله عليه وسلم . والعضباء مشقوقة الأذن . ولم تكن ناقته صلى الله عليه وسلم كذلك ، وإنما هو لقب لزمها .

(٣) أي عَدْواً على الرجلين .

يارسول الله ! بأبي وأمي ! ذرني فلأسابق الرجل . قال « إن شئت » قال قلت : اذهب إليك . وثنيت رجلي فطفرت [1] فعدوت . قال : فربطت عليه شرفا أو شرفين أستبقي نَفَسي [2] . ثم عدوت في إثره . فربطت عليه شرفا أو شرفين . ثم إني رفعتُ حتى ألحقه [3] . قال : فأصكه بين كتفيه ، قال قلت : قد سُبِقْتَ والله ، قال : أنا أظن ، قال : فسبقته إلى المدينة [4] .

هذه القصة الرائعة تعتبر مثالا حيا للحروب السريعة الخاطفة ، التي تعتمد على انتهاز الفُرص المناسبة وسرعة الحركة والمهارة الحربية ، فما هي المؤهلات التي أهَّلَت هذا البطل المغوار سَلَمَة بن الأكوع السُّلمي لتحقيق هذه النتائج السريعة المذهلة ؟ ! .

إذا عدنا إلى سياق القصة وواقع حياة الصحابة نجد أن هذا البطل يتَّصف أولاً بالإيمان القوي بالله تعالى ورسوله ﷺ ، ومن أجل هذا الإيمان يبذل كل طاقته التي وهبها الله تعالى له ، فبينما نجد الأربعة الذين صعدوا إليه حتى قربوا منه ينحدرون سراعا منهزمين أمامه ، نجده يقف لهم صامدا ويهددهم ، ولاشك أن هؤلاء الأربعة من شجعان قومهم ، إذ أنه لايبرز عادة في مثل هذه المواطن إلا الشجعان ، ولكنهم لم يبذلوا

---

(١) أي وثبت وقفزت .

(٢) معنى ربطت حبست نفسي عن الجرى الشديد . والشرف ما أرتفع من الأرض . وقوله : أستبقي نفسي ، أي لئلا يقطعني البهر .

(٣) أي أسرعت وهذه التعليقات أكثرها مستفاد من هامش صحيح مسلم .

(٤) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٨٠٧ (ص ١٤٣٣ - ١٤٤٠) .
وأخرجه الإمام البخاري مختصرا - صحيح البخاري ، المغازي رقم ٤١٩٤ (٧/ ٤٦٠) .

من طاقتهم إلا القليل ، لأن الذي من أجله يُقْدمون على القتال هو الحصول على المال والجاه في هذه الحياة الدنيا ، وهذا الهدف ينعدم وجوده إذا قُتلوا ، فلماذا يبذلون كل طاقتهم والحال أن ذلك يعرضهم لخطر الموت ، فيفوِّت عليهم الهدف الذي من أجله خرجوا وقاتلوا ؟ .

أما الذين يؤمنون بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر فإنهم لايقاتلون من أجل الجاه والمال في هذه الحياة الدنيا ، ولكنهم يقاتلون لهدف أسمى وأجلّ ، يقاتلون ابتغاء مرضاة الله تعالى والسعادة الأخروية ، ولذلك رأينا هذا البطل يغامر بنفسه ويركب الأهوال ، لأنه يؤمِّل في الظفر بإحدى السعادتين : إما الفوز في الحياة الدنيا وفي ذلك إعزاز للإسلام وحماية للمسلمين ، وإما الظفر بالشهادة في سبيل الله تعالى .

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى موجهًا عباده المؤمنين ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ** ﴾ [التوبة : ٥٢] .

ونجد هذا الصحابي الجليل يتمتع ثانيا بالشجاعة النادرة فهو في هذه المعركة لايهاب الأعداء وإن كانوا سرية كاملة .

ونجده بعد ذلك يتمتع بتدريب عالي المستوي من الرياضة البدنية ، فهو يعدو سريعا للّحاق بالعدو على قدميه طول النهار ، وفي أرض جبلية وعرة ، فأيُّ تدريب هذا الذي تلقاه هذا البطل ؟ !

ونجده يتمتع بالصبر وقوة الاحتمال فقد ظل يوما كاملا مصابراً

للعدو متتبعا له حتى ضاق به عدوه ذرعا فوقفوا لأخذ الراحة وتناول الطعام ، فوقف لهم بالمرصاد فوق الجبل حتى يحول بينهم وبين العودة إلى أخذ ما تخففوا منه من سلاحهم وما انتهبوه ، حتى قدم الصحابة رضي الله عنهم .

ونجده كذلك بارعا في المهارة الحربية ، وذلك في سرعة التنقل بين الظهور والاستخفاء حسب احتياجات المعركة .

ونجد أن مما ساعده على الظفر بأعدائه والمقدرة على إجلائهم أنه كان راميا ماهراً في الرماية ، فقلما أخطأ له سهم ، وذلك وفَّر أسْهُمَه للنكاية بأعدائه ، وحينما دخلوا في مضايق الجبل ووجد أن سهامه لاتصل إليهم استعمل سلاحًا آخر يثيرهم ويزعجهم حيث علاهم فوق الجبل وصار يقذفهم بالحجارة .

وأخيراً في مواقف سلمة بن الأكوع قيامه بمسابقة ذلك الرجل الأنصاري في عودتهم إلى المدينة ، وقد شرح في كلامه الطريقة المثلى في العدْو ، وفاز في المسابقة مع أنه كان يعدو يوما كاملاً ، فأيُّ لياقة بدنية كان يتمتع بها هذا الصحابي الجليل !! .

وفي ثنايا هذا الخبر نجد موقفا للصحابي الجليل الأخرم الأسدي رضي الله عنه ، وذلك في قوله « ياسلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق والنار حق فلا تحُلْ بيني وبين الشهادة » ثم إقدامه على قتال الأعداء حتى استشهد .

فهذا الصحابي الجليل الذي غامر بنفسه وضرب في نحر العدو وحده وهو يناشد سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن لايحول بينه وبين

الشهادة كان يتمتع بالشجاعة الفائقة والمغامرة الجريئة ، وإن كان مردود هذه المغامرة بالنسبة لحصول النصر غير متحقق بنسبة ظاهرة ، حيث كان في وضع مكشوف للأعداء ، بخلاف ما قام به سلمة بن الأكوع من الرماية عن بُعْد والاستخفاء حين اللزوم ، ولكن الغاية التي سعى إليها الأخرم هي طلب الشهادة في سبيل الله تعالى ، وقد لاح له موطن من مواطنها فأراد أن يسارع إليه ، وحصل له ما أراد رضي الله عنه .

ولكن هل يُحكم على عمله بأنه لاجدوى منه حيث لم يحقق نصراً للمسلمين في ذلك الموطن بينما حقق بعض النصر للأعداء ؟ أم يُحكم عليه بأن له جدوى كبيرة بالنظر لاعتبارات أخرى ؟ .

في الحقيقة أنه مع ما للشهادة من مقام كبير وفائدة عظيمة بالنسبة لصاحبها فإن الإقدام على المغامرة وإرخاص النفوس في سبيل الله تعالى عامل مهم من عوامل الدعوة إلى الإسلام ، إذ أن الأعداء يفهمون من هذا التسابق على الاستشهاد أن هناك مبدأ عظيما يهيمن على النفوس لايتوفر لدى غير المسلمين ، فيدفعهم ذلك إلى الدخول في الإسلام ، ولذلك ذكر الله سبحانه في معرض بيان الحكمة من وقوع الإصابة في جيش المسلمين يوم أحد ﴿ **وليتَّخذَ منكم شهداء** ﴾ - آل عمران/ ١٤٠- .

ولقد قام بطل الإسلام وفارس رسول الله ﷺ أبو قتادة رضي الله عنه - كما جاء في هذا الخبر - بإزالة آثار هذا الانتصار اليسير الذي حققه الأعداء حيث قتل زعيمهم عبد الرحمن الفزاري الذي قتل الأخرم الأسدي ، وهذا موقف في الشجاعة والتضحية يذكر لأبي قتادة .

وأخيراً فإن في هذا الخبر معجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر سلمة بن

الأكوع بأن القوم قد أضافهم رجل من غطفان ، فجاء رجل من غطفان فقال : نَحَرَ لهم فلان جزورا ، وهذا من الإخبار بالمغيبات .

* * *

مواقف وعبر

فى غزوة خيبر

١ – الخروج إلى خيبر وأخبار بعض الفقراء –

أخرج محمد بن عمر الواقدي أخبار غزوة خيبر بعدة أسانيد عن عدد من الشيوخ قالوا : قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية في ذي الحجة تمام سنة ست ، فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم ، وخرج في صفر سنة سبع إلى خيبر .

ثم ذكر خبر محاولة خروج المتخلفين عن الحديبية معه إلى أن ذكر بعض أخبار فقراء الصحابة وما حصل لهم من مشقة تأمين ما يلزمهم للخروج فقال : وكان لأبي الشحم اليهودي عند عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله فلزمه ، فقال : أجِّلني فإني أرجو أن أقدَم عليك فأقضيك حقك إن شاء الله ، إن الله عز وجل قد وعد نبيه خيبر أن يُغنمه إياها . وكان عبد الله بن أبي حدرد ممن شهد الحديبية ، فقال : يا أبا الشحْم ، إنا نخرُج إلى ريف الحجاز في الطعام والأموال . فقال أبو الشحم حسدًا وبغيًا : تحسبُ أن قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب ؟ فيها والتوارة عشرةُ آلاف مُقاتل ! .

قال ابن أبي حدرد : أي عدو الله ! تُخوفنا بعدوّنا وأنت في ذمتنا وجوارنا ؟ والله لأرفعنك إلى رسول الله ! فقلتُ : يارسول الله ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودي ؟ وأخبرته بما قال أبو الشحم . فأُسكتَ رسولُ الله ﷺ ولم يرجع إليه شيئا ، إلا أني رأيتُ رسول الله ﷺ حرك شفتيه بشيء لم أسمعه ، فقال اليهودي : يا أبا القاسم ، هذا قد ظلمني وحبسني بحقِّي وأخذ طعامي ! قال رسول الله ﷺ : أعطه حقه .

قال عبد الله : فخرجتُ فبعت أحد ثوبيّ بثلاثة دراهم ، وطلبتُ

بقية حقه فقضيته ، ولبستُ ثوبي الآخر ، وكانت عليَّ عمامةٌ فاستدفأت بهـا . وأعطاني سلمـة بن أسلم ثوبا آخـر ، فـخـرجت في ثوبين مع المسلمين ، ونفلني اللهُ خيراً ، وغنمتُ امرأةً بينها وبين أبي الشحم قرابةٌ فبعتها منه بمال .

وجاء أبو عبس بن جبر فقال : يارسول الله ، ما عندنا نفقة ولا زاد ولاثوب أخرجُ فيه ، فأعطاه رسول الله ﷺ شُقَيقةً سُنبُلانيةً[1] ، فباعها بثمانية دراهم ، فابتاع تمراً بدرهمين لزاده وترك لأهله نفقةً درهمين ، وابتاع بُردةً بأربعة دراهم .

فَبَيْنَما رسول الله ﷺ في طريق خَيبر في ليلة مُقمرة إذْ أبصر برجل يسير أمامه ، عليه شيءٌ يبرق في القمر كأنه في الشمس وعليه بيضة ، فقال رسول الله ﷺ : من هذا : فقيل : أبو عَبس بن جَبْر . فقال رسول الله ﷺ : أدركُوه ! قال : فأدركوني فحبسوني ، وأخذني ماتقدم وماتأخر ، وظننت أنه قد نزل فيَّ أمرٌ من السماء ، فجعلت أتذكَّر ما فعلتُ حتى لحقني رسولُ الله ﷺ فقال : مالك تَقدُم الناسَ لاتسيرُ معهم؟ قلتُ : يارسول الله ، إن ناقتي نَجيبة .

قال : فأين الشُّقيقَة التي كسوتُك ؟ فقلت : بعتُها بثمانية دراهم ، فتزودت بدرهمين تمراً ، وتركتُ لأهلي نفقة درهمين ، واشتريتُ بردةً بأربعة دراهم . فضحك رسولُ الله ﷺ ثم قال : أنت والله ياأبا عبس

---

(١) الشقيقة : تصغير شقة وهي جنس من الثياب . وسنبلانية : أي سابغة الطول ، سنبل ثوبه إذا أسبله وجره من خلفه أو أمامه ، والنون زائدة ، ويحتمل أن يكون منسوبا إلى موضع . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١٨٤ , ٢٣١) .

وأصحابك من الفقراء ! والذي نفسي بيده لئن سلمتم وعشتم قليلاً ليكثرنَّ زادُكم ، وليكثرنَّ ما تتركون لأهليكم ، ولتكثرنَّ دراهمُكم وعبيدُكم ، وما ذاك بخير لكم ! قال أبو عبس : فكان والله ما قال رسولُ الله ﷺ (١) .

فهذان الخبران وأمثالهما يدلان على شدة الفقر وانخفاض مستوى المعيشة عند الصحابة رضي الله عنهم ، ومع ذلك استطاعوا أن يقاوموا أحزاب العرب وأن يغزو البلاد المنيعة كخيبر .

إن الفقير الذي تتجاذ به هموم سداد الديون وتأمين المعيشة الضرورية له ولأهله لا يُنتظر منه عادة أن يُسهم في أمور الجهاد والإصلاح بطاقة عالية ، لأن أغلب طاقته مصروف لهمومه الخاصة ، ولكن حينما يكون الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر قويا واليقين راسخا يتضاءل مفعول هموم الدنيا على النفس ، ويكون الذي يفرض نفسه على الإنسان هو مبدؤه السامي الذي آمن به إيمانا صادقا قويا ، فيأتي بالعجائب في خدمة هذا المجال وإن كان محمَّلا بالأعباء والأثقال .

وفي الخبر الأخير عبرة في إخبار النبي ﷺ عما سيكون في المستقبل من انفتاح الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم ، وقد كان ذلك حينما فتحت بلاد الفرس وبعض ممالك الروم ، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ .

وفي إخبار النبي ﷺ بخيرية أمته في حال فقرها إشارة إلى أهمية لزوم حياة الزهد والاقتصاد في المعيشة ، وصرف الأموال الفائضة في

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٣٤ - ٦٣٦)

عمران بلاد الإسلام وتقوية الجيوش الإسلامية ، وهذا هو الذي سار عليه الخلفاء الراشدون وخاصة أبا بكر وعمر رضي الله عنهم .

* * *

٢ – مثل من اللجوء إلى الله تعالى وتعظيم شعائر الإسلام – (الوصول إلى خيبر)

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم ، عن عطاء بن أبي مروان الأسلمي ، عن أبيه ، عن أبي مُتعِّب بن عمرو : أنّ رسول الله ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه ، وأنا فيهم : قفُوا ، ثم قال : اللهمّ ربّ السموات وما أظْللن ، وربَّ الأرضين وما أقللْن ، وربَّ الشَّياطين وما أضللْن ، وربَّ الرّياح وما أذْرين ، فإنَّا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخيرَ ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، اقدُموا بسم الله . قال . وكان يقولُها عليه السلام لكلّ قرية دَخلها[1] .

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم عن أنس بن مالك ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا غزا قومًا لم يُغرْ عليهم حتى يُصبح ، فإن سمع أذانا أمسك وإن لم يسمع أذانا أغار . فنزلنا خيبر ليلا ، فبات رسول الله ﷺ ، حتى إذا أصبح لم يسمع أذانا ، فركب وركبنا معه ، فركبتُ خلف أبي طلحة ، وإن قَدَمي لتمس قَدَمَ رسول الله ﷺ ، واستقبلنا عُمَّال خيبر غادين ، قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش ، قالوا : محمد والخميس [2] معه ! فأدْبرُوا هُرَّابا ، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحُ المنذَرين [3] .

---

(١) وأخرج الحاكم هذا الدعاء وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي – المستدرك ٢/ ١٠٠ – .

(٢) يعني الجيش .

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٣٦ – ٤٣٧ ، وأخرجه الأئمة البخاري ومسلم وأحمد مختصرا =

فالرسول ﷺ مع ربه جل وعلا بيقينه ودعائه وتوكله ، وهو يعلم أن الخلق جميعا أمرهم بيده جل وعلا ، فيسأل ربه بتضرع ويقين أن يمنحه وأصحابه خير تلك القرية وخير أهلها وخير ما فيها وأن يقيه من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، وإذا حاز العبد على حفظ الله تعالى فلن تستطيع قوى الأرض مجتمعة أن تصل إليه بسوء ولا أن تمنعه من خير .

وفي اعتبار النبي ﷺ الصلاة علامة على الإسلام تعظيم للصلاة وبيان لمنزلتها من الدين ، وفي هذا بيان لأهمية صلاة الجماعة بالذات حيث إن الأذان إعلام بدخول وقت الصلاة ونداء للاجتماع في المساجد بقول المؤذن « حيَّ على الصلاة » أي أقبلوا أيها المسلمون إلى الصلاة في المسجد .

وفي قوله ﷺ « إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » إظهار لعزة المسلمين وقوتهم ورفع لمعنويتهم .

* * *

=صحيح البخاري ، رقم ٤٢١٠ ، المغازي ، صحيح مسلم رقم ٢٤٠٦ ، فضائل الصحابة ، مسند أحمد ٥/ ٣٣٣، وذكره الهيثمي عن أحمد في روايتين قال عن أحدهما : ورجاله ثقات وقال عن الأخرى : ورجاله رجال الصحيح - ٦/ ١٥٠-١٥١ - .

٣ – مثل من حصانة الصحابة في الحروب النفسية – (إرجاف اليهود بالمسلمين)

قال الواقدي فيما يروى عن شيوخه : وكانت يهود خيبر لايظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمَنعتهم وحُصونهم وسلاحهم وعَدَدهم ، كانوا يُخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفًا ثم يقولون : محمد يغزونا؟ هيهات ! هيهات! وكان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهز النبي ﷺ إلى خيبر : ما أمنع والله خيبر منكم ! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم ، حصون شامخات في ذُرى الجبال، والماءُ فيها واتن[١] ، إن بخَيبر لألفَ دارع ، ماكانت أسدٌ وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم ، فأنتم تطيقون خيبر ؟ فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبي ﷺ ، فيقول أصحابُ النبي ﷺ : قد وعدها الله نبيه أن يُغَنِّمه إياها .

فخرج رسول الله ﷺ إليهم ، فعَمَّى الله عليهم مخرجه إلا بالظن حتى نزل رسولُ الله ﷺ بساحاتهم ليلاً[٢] .

هذا الإرجاف القوي من اليهود يمكن أن يزلزل أعداءهم وأن يصرفهم تماما عن التفكير بغزو أهل خيبر لو كان أعداء اليهود من غير المسلمين الصادقين .

فالمسلمون يخرجون من المدينة بألف وأربعمائة مقاتل ليواجهوا عشرة آلاف في بلدهم وحصونهم المنيعة المليئة بالسلاح والطعام المؤمَّنة

---

(١) أي جار تحت حصونهم .

(٢)مغازي الواقدي ٢/ ٦٣٧

بالماء الجاري من تحت الأرض ، لاشك أن المسلمين لو تصور حالهم المتأمل الخبير بالحروب وهم مُجَرَّدون من العقيدة سَيَحْكُم عليهم بالفشل وسيحكم على خروجهم بأنه مغامرة مهلكة .

لكن المسلمين قد اعتقدوا أن النصر لهم لأن الله تعالى وعد نبيه ﷺ أن يُغَنِّمه خيبر ، وما دام الله جل وعلا قد وعد بذلك فلايمكن أن يتخلف وعده ، ونظرا لقوة إيمان المسلمين فإنهم قد ألغوا جميع الاحتمالات السيئة ، ونصبوا أمامهم وعد الله تعالى الذي لا يتخلف فأقدموا على تلك المغامرة .

* * *

٤ – موقف حزم وخبرة من عباد بن بشر –

قال الواقدي : بعث رسول الله ﷺ عَبّاد بن بشر في فوارسَ طليعةً ، فأخذ عينًا لليهود من أشجع فقال : من أنت ؟ قال : باغ أبتغي أبعرةً ضلَّتْ لي ، أنا على أثرها . قال له عباد : ألك علم بخيبر ؟ قال : عهدي بها حديث ، فيم تسألني عنه ؟ قال : عن اليهود . قال : نعم ، كان كنانة ابن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حُلفائهم من غطفان ، فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنةً ، فجاءُوا مُعدِّين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عُتبة بن بدر ، ودخلوا معهم في حصونهم ، وفيها عشرة آلاف مقاتل ، وهم أهل الحُصون التي لاتُرام ، وسلاحٌ وطعامٌ كثير لو حُصروا لسنين لكفاهم ، وماءٌ واتنٌ يشربون في حُصونهم ، ما أرى لأحد بهم طاقة . فرفع عباد بن بشر السوط . فضربه ضربات وقال : ما أنت إلا عين لهم ، اصدقني وإلا ضربت عنقك ! فقال الأعرابي : أفتؤَمِّني على أن أصدقك ؟ قال عباد : نعم .

فقال الأعرابي : القوم مرعوبون منكم خائفون وَجِلُون لما قد صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود ، وإن يهود يثرب بعثوا ابن عم لي وجدوه بالمدينة ، قد قدم بسلعة يبيعها ، فبعثوه إلى كنانة بن أبي الحقيق يخبرونه بقلَّتكم وقلة خيلكم وسلاحكم . ويقولون له : فاصدقوهم الضرب ينصرفوا عنكم ، فإنه لم يلق قومًا يُحسنون القتال ! وقُريش والعرب قد سُرُّوا بمسيره إليكم لما يعلمون من مَوادِّكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم ! وقد تتابعت قُريش وغيرهم ممن يهوي هوى محمد ، تقول قريش : إن خيبر تظهر ! ويقول آخرون : يظهر محمد ، فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر ! قال الأعرابي : وأنا أسمع كل هذا ، فقال لي

كنانة : اذهب معترضًا للطريق فإنهم لايستنكرون مكانك، واحزرهم لنا، وادنُ منهم كالسائل لهم ما تقوى به ، ثم ألْق إليهم كثرةَ عددنا ومادَّتنا فإنهم لن يَدَعوا سؤالك ، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم .

فأتى به عباد النبي ﷺ فأخبره الخبر ، فقال عمر بن الخطاب : اضرب عنقه . قال عباد: جعلت له الأمان . فقال رسول الله ﷺ : أمسكه معك ياعباد ! فأوثق رباطًا . فلما دخل رسول الله خيبر عرض عليه الإسلام وقال رسول الله ﷺ : إني داعيك ثلاثًا ، فإن لم تسلم لم يخرج الحبلُ عن عنقك إلا صَعَدًا ! فأسلم الأعرابي [١] .

وهكذا استطاع عباد بن بشر رضي الله عنه بحزمه وخبرته الحربية أن يستخرج المعلومات الصحيحة من ذلك الجاسوس ، فتبين أن هذه المعلومات ضد المعلومات التي تم تزويده بها من قبل اليهود ، فقد أرادوا تحطيم معنوية المسلمين بالإرجاف ، لكن الله تعالى رد كيدهم في نحورهم حيث نطق ذلك الجاسوس بالحقيقة فوصف ماهم فيه من الخوف الشديد والهلع البالغ .

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٤٠ - ٦٤١

٥ - بدء القتال وفتح حصن النَّطاة -

ذكر الواقدي في سياق روايته أن النبي ﷺ لما وصل إلى خيبر نزل قريبا من حصن النطاة ، وأن المسلمين قاتلوا اليهود يومهم ذلك بالنبال .

ثم ذكر أن النبي ﷺ انتقل بعيدا عن الحصن ونزل في مكان يسمى الرجيع ليكون أكثر أمانا للمسلمين ، قال : فلما أمسى رسولُ الله ﷺ تحول إلى الرجيع وخاف على أصحابه البيات . فضرب عسكره هناك وبات فيه ، وكان مُقامه بالرَّجيع سبعة أيام . يغدو كل يوم بالمسلمين على راياتهم متسلحين ويترك العسكر بالرجيع ، ويستخلف عليه عُثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويقاتل أهل النطاة يومه إلى الليل ، ثم إذا أمسى رجع إلى الرجيع . وكان قاتل أول يوم من أسفل النطاة ، ثم عاد بعدُ فقاتلهم من أعلاها حتى فتح الله عليه . وكان من جُرح من المسلمين حُمل إلى المعسكر فدُووي ، وإن كان به انطلاق انطلق إلى معسكر النبي ﷺ . وكان أول يوم قاتلوا فيه جُرح من المسلمين خمسون رجلاً من نبلهم[1] .

هذا النوع من القتال يبين لنا عظمة المسلمين حيث يقاتلون وهم في العراء قوما قد تحصنوا بحصنهم فنبالهم أعلى من نبال المسلمين ، وهم متسترون بحصنهم والمسلمون لايسترهم شيء ، ومع فُشُوِّ الجراح بالمسلمين من نبال العدو فإنهم استمروا في الحصار والقتال حتى فتح الله تعالى لهم ذلك الحصن ، وهو مثل على صبر المسلمين وقوتهم في مصابرة أعدائهم .

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٤٥ - ٦٤٦

٦ - إسلام يسار الحبشي -

قال ابن إسحاق : وكان من حديث الأسود الراعي - فيما بلغني - أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر لبعض حُصون خيبر ، ومعه غنم له ، كان فيها أجيراً لرجل من يهود ، فقال : يارسول الله ، اعرض علي الإسلام ، فعرضه عليه ، فأسلم - وكان رسولُ الله ﷺ لايحقر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام ، ويعرضه عليه - فلما أسلم قال يارسول الله ، إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم ، وهي أمانة عندي ، فكيف أصنع بها ؟ قال اضرب في وجوهها ، فإنها سترجع إلى ربها - أو كما قال- فقام الأسود ، فأخذ حفنة من الحصى ، فرمى بها في وجوهها ، وقال ارجعي إلى صاحبك ، فو الله لا أصحبك أبداً ، فخرجت مجتمعة ، كأن سائقاً يسوقها ، حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم إلى ذلك الحصن ليُقاتل مع المسلمين ، فأصابه حجر فقتله ، وما صلى لله صلاة قط ، فأُتيَ به رسول الله ﷺ ، فَوُضع خلفه ، وسُجِّي بشملة كانت عليه ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، ومعه نفر من أصحابه ، ثم أعرض عنه ، فقالوا : يارسول الله ، لمَ أعرضت عنه ؟ قال : إن معه الآن زوجتيه من الحور العين .

قال ابن إسحاق : وأخبرني عبد الله بن أبي نجيج أنه ذُكر له : أن الشهيد إذا ما أصيب تدلَّت له زوجتاه من الحور العين ، تنفضان التراب عن وجهه ، وتقولان : تَرَّبَ الله وجه من تربك ، وقتل من قتلك[1] .

وهكذا أبصر نور الهداية عبد مملوك بينما حُجبَتْ عن علماء أهل

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٥٩ - ٤٦٠

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه وذكر أن اسم الراعي « يسار الحبشي » - مغازي الواقدي ٢/ ٦٤٩

الكتاب ، فالهداية نور ، والنور لايَحُلّ إلا في قلب صحيح سليم من الهوى المنحرف والحسد والغل ، أما القلب المريض فإنه محجوب عن ذلك النور وإن كان الفكر في غاية الفهم والعلم .

ولقد كان إيمان يسار الحبشي قويا صادقا دفعه إلى الجهاد حتى نال الشهادة في سبيل الله تعالى ، ولقد رأى رسول الله ﷺ زوجتيه من الحور العين مما يدل على صدق إيمانه .

وفي هذا الخبر دلالة على أمانة الصحابة رضي الله عنهم ، فحينما اتجه إليهم يسار بغنمه لم يعرض لها أحد منهم ، لا في حال إقباله ولا في حال دفعه بالغنم إلى الحصن .

❊ ❊ ❊

٧ - فتح حصن ناعم وموقف لعلي بن أبي طالب -

أخرج الإمام البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحبُّ الله ورسوله ويحبه اللهُ ورسوله . قال : فبات الناس يدوكون [١] ليلتهم : أيهم يُعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : أين عليُّ بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يارسول الله يشتكي عينيه . قال فأرسلوا إليه فأتيَ به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية . فقال علي : يارسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . فقال : انفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حق الله فيه ، فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النعم [٢] .

وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه ، وذكر نحوه [٣] ، وفي رواية له أخرى من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في حديث طويل جاء في آخره خبر خيبر وفيه « ثم أرسلني - يعني رسول الله ﷺ - إلى عليّ وهو أرمد ، فقال : لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، قال : فأتيت عليا فجئت به أقوده وهو أرمد ، حتى أتيت به رسول الله ﷺ فبصق في عينيه فبرأ ، وأعطاه الراية ، وخرج مرحب فقال :

(١) يدوكون أي اختلط عليهم الأمر فصاروا يخوضون في الحديث عن صاحب الراية .

(٢) صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٢١٠ (٧/ ٤٧٦)

(٣) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، رقم ٢٤٠٦، (ص ١٨٧٢).

قـد عـلمت خيبر أني مَرْحب شـاكي السـلاح بطل مجرَّب
إذا الحـروب أقـبلت تلـهَّب

فقال علي :
أنـا الذي سَمَّتْني أمـي حَيـدرة[1] كَلَيث غـابات كريه المَنْظَرَهْ
أُوفيهُمُ بالصاع كيْلَ السندَرَة [2]

قال : فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه [3] .

فهذا الخبر يشهد لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بالفضل الكبير ، وذلك من جهة شهادة النبي ﷺ له بأنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، وهذا شرف كبير لعلي رضي الله عنه ، مما جعل كل واحد من الصحابة يرجو أن يكون صاحب هذا الشرف العالي ، وذلك لقوة شعورهم بالهدف الأعلى للإسلام وهو بلوغ رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

كما أن في هذا الخبر فضلا كبيرا من جهة ما امتاز به علي رضي الله عنه من الشجاعة النادرة والتمتع باقتحام الأهوال ، فقد كان مرحب اليهودي أشجع اليهود وكان يخيف مبارزيه ، ولكن عليا لم يبال به

---

(١) الحيدرة اسم للأسد ، أي أنا الأسد في شجاعته وقوته .
(٢) السندرة مكيال واسع ، والمعنى : أقتل الأعداء قتلا ذريعا .
(٣) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٨٠٧ (ص ١٤٣٣ - ١٤٤١)

وهجم عليه بقوة وإقدام حتى جَنْدَلَه قرب حصنه ، ثم ثبت ومن معه ثبات الأبطال حتى فتح الله لهم ذلك الحصن الذي يعتبر من أمنع حصون خيبر ، وهو حصن « ناعم » كما ذكر الواقدي في روايته [١] .

ومن الأبطال الذين كان لهم إسهام كبير في فتح ذلك الحصن إضافة إلى علي بن أبي طالب أبو دجانة سماك بن خرشة ، ومحمد بن مسلمة ، والزبير بن العوام رضي الله عنهم .

وفي ذلك يقول الواقدي فيما يرويه عن شيوخ من بني ساعدة قالوا : قَتل أبو دجانة الحارث أبا زينب ، وكان يومئذ معلمًا بعمامة حمراء ، والحارث مُعلم فوق مغفره [٢] .

وروى عن شيوخه قالوا : وبرز أُسَير ، وكان رجلاً أيِّدا [٣] ، وكان إلى القصَر ، فجعل يصيح ، من يبارز ؟ فبرز له محمد بن مَسلمة فاختلفا ضربات ، ثم قتله محمد بن مسلمة . ثم برز ياسر وكان من أشدائهم ، وكانت معه حربةٌ يحوش بها المسلمين حَوشًا ، فبرز له عَليٌّ عليه السلام فقال الزبير : أقسمتُ عليك إلا خليت بيني وبينه . ففعل عليٌّ وأقبل ياسر بحربته يسوق بها الناس ، فبرز له الزبير ، فقالت صفية : يارسول الله واحَزنَى ! ابني يُقتل يارسول الله ! فقال : بل ابنُك يقتُله . قال : فاقتتلا فقتله الزبير ، فقال له رسول الله ﷺ : فداك عمٌّ وخالٌ ! وقال النبي ﷺ : لكل نبيٍّ حواريٌّ وحواريَّ الزبير وابن عمتي .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٥٢ .

(٢)مغازي الواقدي ٢/ ٦٥٤ .

(٣) أي قويا .

فلما قُتل مرحب وياسر قال رسول الله ﷺ : أبشروا، قد ترحبت خيبر وتيسرت ! وبرز عامر وكان رجلاً طويلاً جسيماً ، فقال رسول الله ﷺ حين طلع عامر : أترونه خمسةَ أذْرُع ؟ وهو يدعو إلى البراز ، يَخطُر بسيفه وعليه درعان ، مُقنَّع في الحديد يَصيح : من يبارز ؟ فأحجم الناسُ عنه ، فَبَرز إليه عَليٌّ عليه السلام فضربه ضربات ، كلٌّ ذلك لايصنع شيئًا، حتى ضرب ساقيه فَبَرك ، ثم ذفَّف (١) عليه فأخذ سلاحه (٢).

وكل هؤلاء كانوا من شجعان اليهود الكبار ، وهذا يبين تفوق أبطال المسلمين على غيرهم بكثير ، وذلك لسمو الهدف الذي ينشدونه وهو الشهادة في سبيل الله تعالى ، وعظمة المثوبة المترتبة على ذلك وهي الظفر بالدرجات العُلَى في الجنة .

أما الكفار فأي شيء يطلبونه من تقديم أرواحهم ! إن الهدف الذي ينشدونه هو الشهرة والمجد الدنيوي ، وهذا سيفوتهم إذا قُتلوا ، ولهذا فإن أكثر طاقاتهم مصروفة للدفاع عن أنفسهم ، بينما تكون جميع طاقة المسلم مصروفة للهجوم على الخصم .

* * *

(١) أي أجهز عليه .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٦٥٧

٨ – فتح حصن الصعب بن معاذ

قال الواقدي فيما يروي عن شيوخه : وكان حصن الصعب بن مُعاذ في النطاة ، وكان حصن اليهود فيه الطعام والودك والماشية والمتاع ، وكان فيه خمسمائة مقاتل ، وكان الناس[١] قد أقاموا أيامًا يقاتلون وليس عندهم طعامٌ إلا العَلَف .

قال مُعتِّب الأسلَميّ : أصابنا معشرَ أسْلم خصاصةٌ حين قدمنا خيبر ، وأقمنا عشرة أيام على حصن النطاة[٢] لا نفتح شيئًا فيه طعام ، فأجمعَتْ أسلم أن يُرسلوا أسماء بن حارثة فقالوا : إيت محمدًا رسول الله فقُل : إنّ أسلم يُقرئونك السلام ويقولون إنّا قد جهدنا من الجوع والضَّعف . فقال بُرَيدة بن الحُصَيب : والله إن رأيتُ كاليوم قطُّ أمرًا بين العرب يصنعون فيه هذا ! فقال هند بن حارثة : والله إنا لنرجو أن تكون البعثةُ إلى رسول الله ﷺ مفتاحَ الخير ، فجاءه أسماءُ بن حارثة فقال : يارسول الله ، إنّ أسلم تقول : إنّا قد جهدنا من الجوع والضعف فَادْعُ الله لنا ، فدعا لهم رسول الله ﷺ فقال : والله ما بيدي ما أقْريهم . ثم صاح بالناس فقال : اللهم افتح عليهم أعظم حصن فيه ، أكثره طعامًا وأكثره ودكًا .

ودفعوا اللواءَ إلى الحُباب بن المُنذر بن الجَموح ، ونَدَب الناس ، فما رجعنا حتى فتح الله علينا الحصن – حصن الصَّعب بن مُعاذ – فقالت أم مُطاع الأسلمية ، وكانت قد شهدت خيبر مع رسول الله ﷺ في نساء ،

---

(١) أي المسلمون .

(٢) يقصد حي النطاة وفيه عدة حصون .

قالت : لقد رأيت أسلم حين شكوا إلى رسول الله ﷺ ماشكوا من شدة الحال ، فندب رسولُ الله ﷺ الناس فنهضوا ، فرأيتُ أسلم أول من انتهى إلى حصن الصَّعْب بن مُعاذ ، وإنّ عليه لخمسمائة مُقاتل ، فما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى فتحه الله ، وكان عليه قتال شديد .

برز رجلٌ من اليهود يقال له يوشع يدعو إلى البراز ، فبرز إليه الحُبابُ بن المُنذر فاختلفا ضربات فقتله الحُبابُ . وبرز آخر يقال له الزَّيَّال، فبرز له عُمارة بن عُقبة الغفاري فبَدَره الغفاريُّ فيضربه ضربةً على هامته ، وهو يقول : خُذْها وأنا الغلامُ الغفاري ! فقال الناس : بطل جهادُه . فبلغ رسولَ الله ﷺ فقال : ما بأسٌ به ، يؤجَر ويُحمد .

وكان أبو اليَسَر يحدّث أنهم حاصروا حصنَ الصَّعب بن مُعاذ ثلاثة أيام ، وكان حصنًا منيعًا ، وأقبلتْ غَنَمٌ لرجل من اليهود ترتع وراءَ حصنهم ، فقال رسول الله ﷺ : من رجلٌ يُطعمنا من هذه الغنم ؟ فقلتُ: أنا يارسول الله ، فخرجت أسعى مثل الظَّبي ، فلما نظر إليّ رسول الله ﷺ مُولّيًا قال : اللهم متِّعْنا به ! فأدركتُ الغنم وقد دخل أوّلُها الحصن ، فأخذتُ شاتين من آخرها فاحتضنتهما تحت يدَيّ ، ثم أقبلتُ أعدو كأن ليس معي شيء حتى أتيتُ بهما رسول الله ﷺ ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فذُبحتا ثم قسمهما ، فما بقي أحدٌ من أهل العسكر الذين هم معه محاصرين الحصن إلا أكل منهما . فقيل لأبي اليَسَر : وكم كانوا : قال : كانوا عددًا كثيرًا . فيقال : أين بقيّةُ الناس ؟ فيقول : في الرَّجيع بالمعسكر .

فسُمع أبو اليَسَر - وهو شيخ كبير - وهو يبكي في شيء غاظه من

بعض ولده ، فقال : لَعمري بقيتُ بعد أصحابي ومُتّعوا بي وما أُمتَّع بهم! لقول رسول الله ﷺ : اللهم متِّعْنا به ! فبقي فكان من آخرهم [1] .

وكان أبو رُهم الغفاريّ يحدّث قال : أصابنا جوعٌ شديدٌ ، ونزلنا خَيْبَر زمان البَلَح ، وهي أرض وخيمة حارّةٌ شديدٌ حَرُّها . فبينا نحن محاصرون حصنَ الصَّعب بن مُعاذ فخرج عشرون حماراً منه أو ثلاثون ، فلم يقدر اليهود على إدخالها ، وكان حصنُهم له منَعةٌ ، فأخذها المسلمون فانتحروها وأوقدوا النيران وطبخوا لحومها في القُدور والمسلمون جياع ، ومَرّ بهم رسولُ الله ﷺ وهم على تلك الحال فسأل فأُخبر فأمر مُناديًا : إنّ رسول الله ﷺ ينهاكم عن الحُمر الإنسية - قال : فكَفَوا القُدور - وعن مُتعة النساء ، وعن كلّ ذي ناب ومخْلَب .

وحدثني ابن أبي سَبرة . عن الفُضَيل بن مبشّر . قال : كان جابر بن عبد الله يقول : أطعَمَنا رسولُ الله ﷺ لحومَ الخيل . فَذَبح قومٌ من المسلمين خيلا من خيلهم قبل أن يُفتح حصن الصَّعب بن مُعاذ : فقيل لجابر : أرأيت البغال . أكنتم تأكلونها ؟ قال : لا .

وحدثني ابن أبي سَبْرَة ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صَعْصَعَة . عن الحارث بن عبد الله بن كعب ، عن أم عمارة ، قالت : ذبحنا بخيبر لبني مازن بن النجار فرسين ، فكنا نأكلُ منهما قبل أن يفتح حصنُ الصَّعب بن مُعاذ .

وكان ابنُ الأكوع يقول : كنا على حصن الصَّعب بن معاذ ، أسلمُ

---

(١) وأخرج ابن إسحاق هذا الخبر وذكر نحوه
- سيرة ابن هشام ٣/ ٤٤٧

بأجمعها ، والمسلمون قد حصروا أهل الحصن ، فلقد رأيتُنا وصاحب رايتنا سعد بن عُبادة ، فانكشف المسلمون ، فأخذ الراية فغدونا معه .

وغدا عامر بن سنان فلقي رجلاً من اليهود ، وبَدَره اليهوديُّ فيضرب عامراً ، قال عامر : فاتقيتُه بدَرَقتي فنبا سيف اليهودي عنه . قال عامر : فأضربُ رجل اليهودي فأقطعُها . ورَجع السيف على عامر فأصابه ذبابُه فنزف فمات . فقال أسيد ابن حُضَير : حبط عملُه . فبلغ رسول الله ﷺ فقال : كذب من قال ذلك [1] إن له لأجرين . إنه جاهد مُجاهدٌ، وإنه لَيَعوم في الجنة عوْمَ الدُّعْموص [2] .

حدثني خالد بن إلياس ، عن جعفر بن محمود بن محمد . عن محمد بن مسلمة قال : كنت فيمن تَرَّس عن النبي ﷺ . قال : فرأيتُ رسول الله ﷺ رَمَى بسهم ، فما أخطأ رجلاً منهم ، وتبسم إليَّ رسولُ الله ﷺ ، وانفرجوا ودخلوا الحصن .

حدثني ابن أبي سبرة . عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فَروة ، عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله ، عن أبيه ، قال : لما انتهينا إلى حصن الصعب بن معاذ ، والمسلمون جياع والأطعمةُ فيه كلُّها ، وغزا بنا الحُباب ابن المُنْذر بن الجَموح ومعه رايتنا وتبعه المسلمون ، وقد أقمنا عليه يومين نقاتلهم أشدَّ القتال ، فلما كان اليوم الثالث بكَّر رسولُ الله ﷺ عليهم ، فخرج رجل من اليهود كأنه الدَّقَل [3] في يده حربةٌ له ، وخرج وعاديته معه فرموا بالنبل ساعة سراعًا ، وترَّسْنا عن رسول الله وأمطروا علينا

---

(١) كذب هنا بمعنى أخطأ ، والكذب يطلق أحيانا في اللغة ويراد به الخطأ .

(٢) الدعموص : الدخَّال في الأمور أي أنه يسيح في الجنة .

(٣) الدقل خشبة يمد عليها شراع السفينة .

بالنَّبل ، فكان نبلهم مثل الجراد حتى ظننتُ ألا يُقلعوا ثم حملوا علينا حملةَ رجل واحد ، فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو واقف ، قد نزل عن فرسه ومدعَم[1] يُمسك فرسه . وثبت الحُبابُ برايتنا ، والله ما يزول يُراميهم على فرسه ، وندب رسولُ الله ﷺ المسلمين وحضهم على الجهاد ورغبهم فيه ، وأخبرهم أن الله قد وعده خَيبر يُغنِّمه إياها .

قال : فأقبل الناس جميعًا حتى عادوا إلى صاحب رايتهم ، ثم زحف بهم الحُباب فلم يزل يدنو قليلاً قليلاً ، وترجع اليهودُ على أدبارها حتى لحمها الشرُّ فانكشفوا سراعًا ، ودخلوا الحصن وغلقوا عليهم . ووافوا على جُدُره - وله جُدُر دون جُدُر - فجعلوا يرموننا بالجَنْدَل[2] رميًا كثيراً . ونحّونا عن حصنهم بوقع الحجارة حتى رجعنا إلى موضع الحُباب الأول .

ثم إن اليهود تلاومت بينها وقالت : ما نستبقي لأنفسنا ؟ قد قُتل أهل الجدّ والجَلَد في حصن ناعم . فخرجوا مستميتين ، ورجعنا إليهم فاقتتلنا على باب الحصن أشدَّ القتال . وقُتل يومئذ على الباب ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ - أبو صَيَّاح . وقد شهد بدراً ، ضربه رجل منهم بالسيف فأطنَّ قحْفَ رأسه ؛ وعَديّ بن مُرَّة بن سُراقة . طعنه أحدهم بالحربة بين ثدييه فمات ؛ والثالث الحَارث بن حاطب وقد شهد بدراً . رماه رجل من فوق الحصن فدمغه . وقد قتلنا منهم على الحصن عدَّة، كلّما قتلنا منهم رجلاً حملوه حتى يدخلوه الحصن ، ثم حمل صاحب

(١) هو مولى رسول الله ﷺ . (الاستيعاب، ص ١٤٦٨) .

(٢) الجندل : الحجارة . (لسان العرب، ١١/ ١٢٨) .

رايتنا وحملنا معه . وأدخلنا اليهودَ الحصن وتبعناهم في جوفه ، فلمّا دخلنا عليهم الحصن فكأنهم غَنَم . فقتلنا مَن أشرفَ لنا . وأسرْنا منهم. وهربوا في كل وجه يركبون الحَرّة يريدون حصن قلعة الزُّبير ، وجعلنا نَدَعهم يهربون وصعد المسلمون على جُدُره فكبروا عليه تكبيراً كثيراً، ففَتَتْنا أعضاد اليهود بالتكبير . لقد رأيتُ فتيانَ أسْلم وغفار فوق الحصن يُكبِّرون .

فوجدنا والله من الأطعمة ما لم نظن أنه هناك ، من الشعير ، والتمر، والسمن ، والعسل . والزيت . والوَدَك . ونادى مُنادي رسول الله ﷺ : كُلُوا وأعلفوا ولاتحتملوا . يقول : لاتخرجوا به إلى بلادكم. فكان المسلمون يأخذون من ذلك الحصن مُقامَهم طعامهم وعلف دوابهم، لايمنع أحد أن يأخذ حاجته ولايُخمَّس الطعام . ووجدوا فيه من البَزّ والآنية ، ووجدوا خوابي السَّكَر [1] ، فأُمروا فكسروها . فكانوا يكسرونها حتى سال السَّكَر في الحصن ، والخوابي كبار لايُطاق حَمْلُها. وكان أبو ثعلبة الخُشَني يقول : وجدنا فيه آنيةً من نُحاس وفَخار كانت اليهود تأكل فيها وتشرب . فسألنا رسول الله ﷺ فقال : اغسلوها واطبخوا وكُلوا فيها واشربوا . وقال : أسخنوا فيها الماء ثم اطبخوا بعد، وكلوا واشربوا . وأخرجنا منه غنمًا كثيراً وبقراً وحُمُراً . وأخرجنا منه آلة كثيرةً للحرب ، ومَنجنيقًا ودبّابات وعُدّة ، فنعلم أنهم قد كانوا يظنون أن الحصار يكون دهراً ، فعجل الله خزيَهم [2] .

---

(١) أي الخمر .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٦٥٨ - ٦٦٤

في هذه الأخبار مواقف وعبر فمن ذلك :

أولاً : فيها تصوير بليغ لما أصاب المسلمين من الجوع الشديد حيث فقدوا الطعام تماما أثناء حصارهم لبعض حصون خيبر ولم يبق معهم إلا علف البهائم ، ومع ذلك صبروا صبرًا جميلاً .

وحينما جاء رسول قبيلة أسلم يبين لرسول الله ﷺ حال قومه الشديدة لم يعرض الأمر بأسلوب التشكّي والتَّضجُّر وإنما أخبر بحالهم ثم طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو الله تعالى لهم ، فكان الدعاء وكانت إجابة الله تعالى بما أغناهم حتى نهاية فتح خيبر .

ثانيًا : فيها نموذجان من تربية النبي ﷺ أصحابه على الاعتدال في الأمور والتحري في الحكم على الناس ، الأول : حينما هجم عمارة بن عقبة الغفاري على قرْنه اليهودي الذي بارزه قال عمارة : خذها وأنا الغلام الغفاري ، فقال الناس : بطل جهاده ، يعني حينما انتسب إلى قومه ولم ينتسب إلى الإسلام ، فقال النبي ﷺ « ما بأسٌ به يؤجر ويحمد» أي يؤجر في الآخرة ويحمد في الدنيا .

فبين النبي ﷺ أن انتماءه إلى قبيلته على سبيل الافتخار لايؤثر على انتمائه إلى الإسلام ما دام الهدف من القتال هو نصرة الإسلام والشعار الذي قد رفعه المجاهدون هو شعار الإسلام ، وإن كان عدم الانتماء للقبيلة هو الأكمل كما هو الحال في سلوك المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم جميعا .

ولقد كان الدافع لأولئك الذين حكموا ببطلان عمل عامر الغفاري هو حماسهم القوي نحو تطبيق الانتماء إلى الإسلام والقضاء على

الانتماء القبلي الذي قد يؤثر على الاتجاه والسلوك ، ولكن النبي ﷺ لم يقرهم على ذلك الحكم الشديد لعلمه بسلامة اتجاه ذلك المجاهد، ولو أنهم لم يحكموا ببطلان عمله وكلموه بلطف وأشعروه بأن الكمال أن ينتمي إلى الإسلام كما يفعل المهاجرون والأنصار لقبل منهم ، ولم ينكر عليهم رسول الله ﷺ ولم يكن بحاجة إلى أن يدافع عن ذلك الغفاري .

وهذا الاتجاه نحو التشدد في الحكم على الناس يوجد غالبا في كل زمن، لأنه يكون استجابة لنداء الغيرة على حرمات الدين ، ولكنه يضر بالمجتمع الإسلامي كثيرا ويُحدث التصدع والانشقاق في صفوفه ، ويسبب تكُّون الأحزاب المختلفة الاتجاه نحو التشدد أو الاعتدال ، إلا إذا وفقت الأمة بقادة علماء حكماء بَعيدي النظر ، لهم سمعة عالية ومحبة في قلوب المسلمين ، فإن هؤلاء العلماء الربانيين يقومون بتوجيه هؤلاء المتحمسين وإعادتهم إلى الاتزان والاعتدال في الحكم على الآخرين ، متأسين في ذلك بإمامهم وقدوتهم ﷺ .

والنموذج الثاني في حكم أسيد بن حضير على عامر بن سنان بأنه قد حبط عمله ، وذلك حينما رجع عليه طرف سيفه وهو يهجم على اليهودي فجرحه فكان سببا لوفاته ، فخطَّأ النبي ﷺ أسيد بن حضير في حكمه هذا الذي تعجل به ، وأبان بأن عامرا شهيد في الجنة يسبح فيها كيف شاء .

وبهذه الجهود التربوية وأمثالها قضى رسول الله ﷺ على اتجاه بعض الصحابة رضي الله عنهم نحو التشدد في الحكم على إخوانهم ، مع الإبقاء على روح الحماس والغيرة الدينية ، وتوجيه تلك الطاقة المتوثبة

نحو الاتجاه السليم والسلوك القويم .

ثالثًا : بذل المسلمون جهودًا كبيرة في القتال حول هذا الحصن، ومن الأبطال الذين سُجِّلت جهودهم الحباب بن المنذر ، وعمارة بن عقبة الغفاري ، وعامر بن سنان رضي الله عنهم جميعا ، ومن أبرز جهودهم خروجهم لمبارزة شجعان اليهود ، وحرب المبارزة هي أشد أنواع الحرب ولايتصدى لها إلا أصحاب الشجاعة وقوة البأس إضافة إلى قوة الإيمان .

يضاف إلى الحباب بن المنذر موقفه القوي في قيادة الجيش الإسلامي الذي تصدى لقتال اليهود حول الحصن ، وذلك في ثباته في مركز القيادة حينما انهزم بعض الجيش إلى أن عادوا إليه فهجم بهم حتى تم فتح ذلك الحصن رضي الله عنهم جميعا .

رابعًا : موقف فدائي لأبي اليَسَر كعب بن عمرو السَّلمي الأنصاري حيث حقق رغبة النبي ﷺ في أخذ شيء من غَنَم اليهود لإطعام المسلمين، وهو موقف خطير حيث إنه لابد أن يقترب من حصن اليهود المليء بالرماة ، ومع هذه الخطورة فإنه قد سعى وراء الغنم حتى دخل أولها الحصن واحتضن منها شاتين ، ولم يبال بما تعرض له من خطر لأن الشيء الذي كان يهيمن على فكره هو أن يحقق رغبة النبي ﷺ ثم لْيُصَب جسمه بالجراح أو القتل فإن ذلك لا يهمه في سبيل تحقيق هدفه الكبير .

واستجاب الله تعالى دعوة نبيه ﷺ فصرف أنظار اليهود عن أبي اليَسَر فلم يتعرض لنبالهم ومتَّع المسلمين بحياته حتى كان من آخر الصحابة رضي الله عنهم وفاة .

ولفتة جليلة من أبي اليسر رضي الله عنه حينما بكى في آخر عمره

على أن مُتِّع به أصحابه فماتوا قبله ولم يمتَّع بهم ، وهذا مثل من نظرة الصحابة إلى الحياة الدنيا فهم يخشون أن يتعرضوا للفتن ثم يلحقهم في دينهم منها شيء ، فلذلك كانوا يشتاقون إلى الآخرة ويغبطون إخوانهم الذين توفاهم الله قبل أن يتعرضوا للفتن .

خامسًا : مثل من قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم وطاعتهم لرسول الله ﷺ وذلك حينما طبخوا تلك الحمر الأهلية وكانوا في مسغبة شديدة وجوع منهك ، ومع ذلك حينما سمعوا منادي رسول الله ﷺ ينهاهم عن أكل لحوم الحمر الإنسية كفَوا القدور على الأرض ولم يطعموا منها شيئًا .

هؤلاء العظماء الذين نجحوا في جهاد أنفسهم وانتصروا على أهوائهم وشهواتهم هم الذين يُعقد عليهم الأمل ويُعتدُّ بهم في جهاد الأعداء وركوب المخاطر وتحمل الشدائد .

* * *

٩ – فتح حصن قلعة الزبير –

أخرج الواقدي بإسناده عن إسحاق بن عبد الله قال : وتحولَت اليهود من حصن ناعم كلها ، ومن حصن الصعب بن معاذ ، ومن كل حصون النَّطاة ، إلى حصن يقال له قلعة الزبير ، فزحف رسول الله ﷺ إليهم والمسلمون ، فحاصرهُم وغلّقوا عليهم حصنهم وهو حَصين مَنيع ، وإنما هو في رأس قلعة لا تَقدر عليه الخيل ولا الرجال لصعوبته وامتناعه ، وبقيت بقايا لا ذكْر لهم في بَعض حصون النَّطاة ، الرجل والرجلان . فجعل رسول الله ﷺ بإزائهم رجالاً يحرسونهم ، لا يطلع أحدٌ عليهم إلا قتلوه .

وأقام رسول الله ﷺ على مُحاصرة الذين في قلعة الزبير ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود يقال له غَزَّال فقال : أبا القاسم ، تُؤمِّني على أن أدلّك على ما تستريح به من أهل النَّطاة وتخرج إلى أهل الشِّقّ ، فإنَّ أهل الشِّق قد هلكوا رُعْباً منك ؟ قال : فأمّنه رسول الله ﷺ على أهله وماله . فقال اليهوديّ : إنك لو أقمتَ شهراً ما بَالَوا ، لهم دُبُولٌ[1] تحت الأرض . يخرجون بالليل فيشربون بها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، وإن قطعتَ مَشْرَبهم عليهم ضجّوا .

فسار رسول الله ﷺ إلى دُبولهم فقطعها ، فلما قطع عليهم مشاربَهم لم يُطيقوا المُقام على العطش ، فخرجوا فقاتلوا أشدّ القتال ، وقُتل من المسلمين يومئذ نفرٌ ، وأُصيب من اليهود ذلك اليوم عشرةٌ ، وافتتحه رسول الله ﷺ فكان آخرَ حصون النَّطاة .

---

(١) الدُّبول جمع دبل وهو جدول الماء .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من النّطاة أمر بالانتقال ، والعسكر أن يُحوّل من منزله بالرَّجيع إلى مكانه الأول بالمنزلة ، وأمن رسولُ الله ﷺ من البيات ومن حرب اليهود وما يخافُ منهم ، لأن أهلَ النطاة كانوا أحدّ اليهود وأهلَ النَّجدة منهم . ثم تحوّل رسول الله ﷺ إلى أهل الشّقّ[1] .

في هذا الخبر عبرة عظيمة ، وذلك فيما قام به ذلك اليهودي من الدلالة على عورة قومه ، فهو من جهة نَصْرٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ وأوليائه المؤمنين ، فإن ذلك الحصن الذي في رأس الجبل من الصعب جدا الوصول إليه لأن المهاجم الذي سيضطر إلى الصعود البطيء سيكون أكثر عرضة لنبال العدو ، مع أنه لا يستطيع الصعود إلا عدد قليل مجتمعين ، وهذا يجعل فتح ذلك الحصن في غاية الصعوبة إلا بعمل كبير من الفدائية . ومن جهة أخرى فإن هذا التصرف من ذلك اليهودي يدل على تهافت مجتمع اليهود وعدم إخلاص الأتباع للقادة ، خصوصا وقد حصل ذلك من غير واحد في أخبار أخرى ، وذلك لكون قادة اليهود يزعمون بأنهم يُطبِّقون التوراة بينما يجد الأتباع أنهم يفسرونها حسب هواهم ، ومن ذلك ما جاء فيها من الأوامر الصريحة بالإيمان بمحمد ﷺ وما جاء فيها من صفاته التي يعرفها حتى صغارهم بما يسمعون من علمائهم ، وما ورثوه من وصايا علمائهم بالدخول في الإسلام وسبْق الناس إلى الإيمان برسول الله ﷺ ، بل أشد من ذلك بالنسبة لهم ما جاء فيها بأنهم سَيُبتَلَون بالقتل والتشريد على يد رسول الله ﷺ ، ومع ذلك يُصرُّون على الكفر به ومعاداته وتأليب العرب على قتاله .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٦٦ - ٦٦٧

فشيوع هذه الأخبار في مجتمع اليهود تجعل الأتباع مترددين بين الخوف من مصيرهم الذي سُطِّر في كتبهم وبين طاعة قادتهم ، إضافةً إلى ما يرونه من التناقض الظاهر بين ادعاء تطبيق التوراة وأعمال قادتهم الكثيرة المخالفة لذلك .

* * *

١٠ - فتح حصن أُبَيّ -

قال الواقدي : فحدّثني موسى بن عمر الحارثي ، عن أبي عُفَير محمد بن سهل بن أبي حَثْمَة قال : لما تحوّل رسول الله ﷺ إلى الشِّقّ وبه حصونٌ ذات عدد ، كان أول حصن بدأ منها حصن أُبَيّ ، فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها سُمران ، فقاتل عليها أهل الحصن قتالا شديدا . وخرج رجل من اليهود يقال له غَزَّال فدعا إلى البراز ، فبرز له الحُباب بن المُنذر فاختلفا ضربات ، ثم حمل عليه الحباب فقطع يده اليمنى من نصف الذراع ، فوقع السيف من يد غَزَّال فكان أعزل ، ورجع مُبادراً منهزماً إلى الحصن ، وتبعه الحُباب فقطع عُرقوبه ، فوقع فذَفَّف عليه .

وخرج آخر فصاح : مَن يبارز ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين من آل جَحش فقُتل الجَحْشيّ . وقام مكانَه يدعو إلى البراز ويبرز له أبو دُجانة قد عصب رأسه بعصابة حمراء فوق المِغْفَر يختال في مشيته ، فبدره أبو دُجانة فضربه فقَطع رجليه ، ثم ذَفَّفَ عليه وأخذ سلبه ، درعه وسيفه ، فجاء به إلى النبيّ ﷺ فنفَّله رسولُ الله ﷺ ذلك .

وأحجموا عن البراز ، فكبّر المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه ، يقدُمهم أبو دُجانة ، فوجدوا فيه أثاثًا ومتاعًا وغَنَمًا وطعامًا ، وهرب من كان فيه من المُقاتلة ، وتقحموا الجُدُر كأنهم الظِّباءُ حتى صاروا إلى حصن النِّزار بالشق [١] .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٦٧ - ٦٦٨

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : موقفان لعلَمَين من أعلام المسلمين في الشجاعة والإقدام وهما الحباب بن المنذر وأبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنهما ، حيث تصدى كل واحد منهما لمبارز من اليهود فقضى عليه ، وكان لذلك أثر في وهن الأعداء .

* * *

١١ - فتح حصون الكتيبة والوطيح والسُّلالم -

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه قالوا : ثم تحول رسول الله ﷺ إلى الكتيبة والوطيح وسُلالم ، حصن ابن أبي الحُقيق الذي كانوا فيه ، فتحصنوا أشدّ التحصن ، وجاءَهم كل فَلٍّ كان قد انهزم من النَّطاة والشِّقّ، فتحصنوا معهم في القَموص وهو في الكتيبة ، وكان حصنًا منيعًا، وفي الوطيح وسُلالم . وجعلوا لايطلعون من حصونهم مُغلِّقين عليهم ، حتى همَّ رسولُ الله ﷺ أن ينصب المنجنيق عليهم لما رأى من تغليقهم ، وأنه لايبرز منهم بارز . فلما أيقنوا بالهلكة وقد حصرهم رسولُ الله ﷺ أربعة عشر يومًا سألوا رسول الله ﷺ الصُّلْح .

قال أبو عبد الله ، قلت لإبراهيم بن جعفر : وُجد في الكتيبة خمسمائة قوس عربية . وقال : أخبرني أبي عمّن رأى كنانة بن أبي الحُقيق يرمي بثلاثة أسهم في ثلثمائة - يعني ذراع - فيُدخلهَا في هدف شبْرًا في شبْر ، فما هو إلا أن قيل : هذا رسول الله ﷺ قد أقبل من الشّقّ في أصحابه ، وقد تهيّأ أهلُ القموص وقاموا على باب الحصن بالنبل ، فنهض كنانة إلى قوسه فما قدر أن يُوترَها من الرِّعْدة ، وأومأ إلى أهل الحصون : لا ترموا ! وانقمع في حصنه ، فما رُئيَ منهم أحد ، حتى أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب . فأرسل كنانة رجلا من اليهود يقال له شَمّاخ إلى النبي ﷺ يقول : أنزلُ إليك أُكلّمك ! فلما نزل شَمّاخ أخذه المسلمون فأُتيَ به النبي ﷺ فأخبره برسالة كنانة . فأنعم له ، فنزل كنانة في نفر من اليهود ، فصالحه على ما صالحه ، فأحلفه عليه .

قال إبراهيم : تلك القِسيُّ والسلاح إنما كان لآل أبي الحُقَيق جماعة

يعيرونه العرب ، والحلي يُعيرونه العرب . ثم يقول : كانوا شرَّ يهود يَثْرب .

قالوا : وأرسل كنانة بن أبي الحُقَيْق إلى رسول الله ﷺ : أنزلُ فأُكلمك ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم . قال : فنزل ابن أبي الحُقَيق فصالح رسولَ الله ﷺ على حَقن دماء مَن في حُصونهم من المقاتلة ، وترك الذُّرّيّة لهم ، ويخرجون من خَيْبَر وأرضها بذراريّهم ، وَيُخلّون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لَهم من مال أَو أرض ، وعلى الصفراء والبيضاء والكُراع والحَلْقَة ، وعلى البَزّ ، إلا ثوبًا على ظهر إنسان . فقال رسول الله ﷺ : وَبَرِئتْ منكم ذِمَّةُ الله وذمّةُ رسوله إن كتمتموني شيئًا . فصالحه على ذلك [1] .

في هذا الخبر عبرة واضحة في نصر رسول الله ﷺ والمؤمنين بالرعب ، فابن أبي الحُقَيْق اليهودي الذي كان مشهورا بالجودة في الرماية وإصابة الهدف من بُعْد لَمَّا سمع بمجيء النبي ﷺ لحصار حصنه ملأ الرعب قلبه حتى أصبح لا يستطيع أن يمسك بالنبل .

وهذا مثل واضح على أن الله تعالى مع أوليائه بنصره وتأييده إذا كانوا معه بالعبادة والتوكل والاستعانة .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٧٠ - ٦٧١

١٢ – مثل من تواضع رسول الله ﷺ –

(خبره مع صفية بنت حيي)

قال الواقدي : وحدثني ابن أبي سَبْرَة ، عن أبي حَرْمَلَة ، عن أخته أم عبد الله ، عن ابنة أبي القَين المُزَنيّ ، قالت : كنت آلفُ صفية من بين أزواج النبي ﷺ ، وكانت تحدّثني عن قومها وما كانت تسمع منهم .

قالت : خرجنا من المدينة حيث أجلانا رسول الله ﷺ فأقمنا بخيبر ، فتزوّجني كنانة بن أبي الحُقَيق فأعرس بي قبل قدوم رسول الله ﷺ بأيام ، وذبح جُزُرًا ودعا باليهود ، وحوّلني في حصنه بسُلالم ، فرأيت في النوم كأنّ قمرًا أقْبلَ من يَثْرب يسير حتى وقع في حجْري . فذكرتُ ذلك لكنانة زوجي فلَطَم عيني فاخضرّت ، فنظر إليها رسول الله ﷺ حين دخلَتُ عليه فسألني فأخبرتُه .

قالت وجعلت اليهود ذراريّها في الكتيبة ، وجرّدوا حصن النَّطاة للمقاتلة ، فلمّا نزل رسول الله ﷺ خيبر وافتتح حصون النَّطاة ، ودخل عليّ كنانةُ فقال : قد فرغ محمد من النَّطاة ، وليس ها هنا أحدٌ يُقاتل ، قد قُتلت اليهود حيث قُتل أهلُ النَّطاة وكذبتْنا العربُ . فحوَّلني إلى حصن النِّزار بالشِّقّ ، – قال : وهو أحصنُ ممّا عندنا – فخرج حتى أدخلني وابنة عمّي ونُسيّات معنا . فسار رسول الله ﷺ إلينا قبل الكتيبة فسُبيتُ في النِّزار قبل أن ينتهي النبي ﷺ إلى الكتيبة ، فأرسل بي إلى رَحْله ، ثم جاءنا حين أمسى فدعاني ، فجئت وأنا مُقنَّعة حَيِيَّة ، فجلستُ بين يَديه فقال : إن أقمت على دينك لم أُكرهْك ، وإن اخترت الله ورسوله فهو خيرٌ لك . قالت : أختارُ الله ورسوله والإسلام . فأعتَقني

رسول الله ﷺ وتزوّجني وجعل عتقي مَهري ، فلما أراد أن يخرج إلى المدينة قال أصحابُه : اليوم نعلم أزوجةٌ أم سُرِّيةٌ ، فإن كانت امرأته فسَيحجبها وإلا فهي سُرِّيَّة . فلما خرج أمر بستْر فسُترتُ به فعُرف أني زوجة ، ثم قَدَّم إليّ البعير وقدَّم فَخذَه لأضعَ رجلي عَليها ، فأعظمتُ ذلك ووضعتُ فَخذي على فَخذه [1] ، ثم ركبتُ .

وكنت أَلقَى من أزواجه ، يفخرن عليّ يقلن : يا بنت اليهوديّ ، وكنت أرى رسول الله ﷺ يَلْطُف بي ويكرمني ، فدخل عليّ يومًا وأنا أبكي فقال : مالك ؟ فقلتُ : أزواجُك يفخرن عليّ ويقلن : يا بنت اليهوديّ قالت : فرأيت رسول الله ﷺ قد غضب ثم قال : إذا قالوا لك أو فاخروك فقولي : أبي هرون وعَمّي موسى [2] .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : في الرؤيا التي رأتها صفية بنت حيي رضي الله عنها عبرة فقد فهمها زوجها السابق كنانة بن أبي الحُقَيق فتشاءم من ذلك ولطم عينها تلك اللطمة الشرسة التي بقيت آثارها حتى جاءت إلى النبي ﷺ ، وكانت بالنسبة لها ممهِّدة لتَقَبُّل ما سيجري عليها من السبي ، ثم بُشْرى خير لها بأن النبي ﷺ سيتزوج بها .

ثانيا : في هذا الخبر مثل عظيم من تواضع النبي ﷺ حيث قدم فخذه لتطأ عليها صفية حينما أرادت أن تركب البعير .

---

(١) لعل الصواب : ووضعت ركبتي على فخذه .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٦٧٤ - ٦٧٥ ، وأخرج الطبراني خبر رؤيا صفية رضي الله عنها ذكره الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح - مجمع ٩ / ٢٥١ - .

إن هذا التواضع الكبير لَيُخْضِع جميع العقلاء لاحترام رسول الله ﷺ وإكباره والإعجاب بعظمته .

امرأة من نسائه كانت مملوكة فأعتقها وكان أبوها حيي بن أخطب عدوه اللدود الذي ألَّب قبائل العرب ضده ، وزوجها ابن أبي الحقيق هو الذي تولى بعد ابن أخطب تأليب الأعداء عليه ، ومع ذلك كله يضع رسول الله ﷺ فخذه لصفية لتتوصل بها إلى ركوب البعير !!

إن تواضع العظماء للمستذلِّين يعتبر دليلا على عظمتهم لأنهم لا يرجون من هؤلاء الضعفاء أيَّ مطمع دنيوي من مال أو جاه ، لكن التواضع للجبارين المستكبرين علامة ضعف واستخذاء ، ما لم يكن هناك ملمح دعوي خاص .

ولئن كان رسول الله ﷺ عظيما في بشريته ، فلقد تكَلَّلَ بهاءً وعظمةً وسمواً في رسالته ، فأصبح قمة لا تُسامَى في التحلي بالفضائل واجتناب الرذائل وقدوة عليا للبشرية في التمثل بمكارم الأخلاق والبعد عن مساوئها .

وإننا حينما نقارن بين هذا السلوك الجميل العالي من رسول الله ﷺ وبين ما جرى على صفية من زوجها ابن أبي الحقيق الذي كان زعيم قومه نجد فرقًا شاسعا بين أخلاق الإسلام السامية التي مثَّلها لها سيد البشر ﷺ وبين أخلاق الجاهلية التي مثلها كنانة بن أبي الحقيق اليهودي .

ولقد كانت أم المؤمنين صفية بنت حيي كبيرة القدر عظيمة الأخلاق حينما أعظمت هذا الأمر ، وأبت أن تضع قدمها على فخذ النبي ﷺ .

* * *

١٣ – مثل من قوة الإيمان –
(خبر الأعرابي المجاهد)

أخرج الإمام عبد الرزاق الصنعاني من حديث شداد بن الهادي أن رجلاً من الأعراب جاء النبي ﷺ فآمن به ، واتَّبعه ، فقال أُهاجر معك ، وأوصى النبي ﷺ به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر – أو حنين – غنم رسول الله ﷺ ، فقسم ، وقسم له ، فأعطى أصحابه ما قسم له ، وكان يرعى ظهرهم [(١)] فلما جاء دفعوه إليه ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : قسمٌ قسمه الله لك ورسول الله ﷺ ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ ، فقال : ما هذا يا محمد ؟ قال : قسمٌ قسمته لك ، قال ما على هذا اتَّبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أُرْمَى ها هنا – وأشار إلى حلقه – بسهم ، فأدخل الجنة ، قال : إن تصدُق الله يصدقك ، قال : فلبثوا قليلاً ، ثم نهضوا في قتال العدوّ ، فأُتي به يُحمَل ، قد أصابه سهم حيث أشار ، فقال النبي ﷺ : أهو هو ؟ صدق اللهَ فصدقه ، فكفَّنه النبي ﷺ في جبة للنبي ﷺ ثم قدّمه النبي ﷺ ، فصلّى عليه ، فكان مما ظهر من صلاته عليه : اللهم هذا عبدك ، خرج مهاجرًا في سبيلك ، فقُتل شهيدًا ، أنا عليه شهيد [(٢)] .

في هذا الخبر مثل من قوة الإيمان الذي ترقّى بصاحبه حتى أوصله في وقت سريع إلى الزهد في الدنيا والرغبة في الشهادة في سبيل الله تعالى، شوقًا إلى دخول الجنة .

---

(١) يعني إبلهم .

(٢) مصنف عبد الرزاق ٥/ ٢٧٦ ،رقم ٩٥٩٧ ، وأخرجه الإمام النسائي – سنن النسائي ٤/ ٦٠– كتاب الجنائز ، باب الصلاة على الشهداء .

وهكذا يفعل الإيمان فعلَه السريع في النفوس المتجردة من هوى النفس ، فيكون الجسد مسخَّرًا للعقل السليم الذي أدرك أن الحياة الحقيقية التي تستحق أن يعمل لها العقلاء هي الحياة الآخرة ، فيتجه المسلم عند ذلك إلى تأمين القدر الضروري للنجاة من النار ودخول الجنة، ألا وهو أداء الواجبات واجتناب المحرمات ، وعندها يبلغ درجة التقوى ولكن حينما يسمو الإيمان وتعلو المدارك لا يقتنع المسلم بأن يكون من المتقين فقط بل يريد أن يكون من السابقين بالخيرات فيسابق في باب النوافل الذي هو مرتع الصالحين .

ونجد صاحب هذا الخبر قد سابق إلى عمل من أزكى الأعمال الصالحة ، حيث بلغ طموحه إلى الشهادة في سبيل الله تعالى ، فأظفره الله بها وظفر بدعوة النبي ﷺ والشهادة له .

* * *

مواقف وعبر

ما بين خيبر ومؤتة

١ – فتح فدك وموقف لمحَيِّصة بن مسعود
وموقف آخر لعبد الله بن رواحة –

١ – أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا : لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خيبر فدنا منها ، بعث مُحَيِّصَة بن مَسعود إلى فدك[1] يدعوهم إلى الإسلام ويخوِّفهم أن يغزوهم كما غزا أهل خَيْبر ويحُلّ بساحتهم .

قال مُحَيِّصة : جئتهم فأقمت عندهم يومين ، وجعلوا يتربصون ويقولون : بالنَّطاة عامر ، وياسر وأُسَير ، والحارث وسيد اليهود مَرْحب ، ما نرى محمدًا يقرب حَراهم[2] ، إنّ بها عشرة آلاف مُقاتل . قال محيصة : فلما رأيت خبثهم أردت أرحل راجعًا ، فقالوا : نحن نُرسل معك رجالاً يأخذون لنا الصُّلح – ويظنُّون أنّ اليهود تمتنع . فلم يزالوا كذلك حتى جاءَهم قتْل أهل حصن ناعم وأهل النجدة منهم ، ففتّ ذلك أعضادهم وقالوا لُمحَيِّصَة : اكتمْ عنَّا ماقلنا لك ولك هذا الحَلْي ! لحَلْي نسائهم ، جمعوه كثيرًا . فقال مُحَيِّصة : بل أخبر رسول الله ﷺ بالذي سمعتُ منكم . فأخبر النبي ﷺ بما قالوا .

قال مُحيصة : وقدم معي رجلٌ من رؤسائهم يقال له نُون بن يوشَع في نفر من اليهود ، صالحوا رسول الله ﷺ أن يحقن دماءَهم ويُجليهم ويُخَلُّوا بينه وبين الأموال . ففعل ، ويقال : عرضوا على النبي ﷺ أن يخرجوا من بلادهم ولايكون للنبي ﷺ عليهم من الأموال شيءٌ ، وإذا كان جُذاذها جاءُوا فجذّوها ، فأبى النبي ﷺ أن يقبل ذلك وقال لهم

---

(١) بينها وبين المدينة يومان . (معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ٣٤٢) .

(٢) الحرا : جناب الرجل ، يقال : اذهب فلا أراك بحراي . (النهاية ، ج ١ ، ص ٢٢٢)

مُحَيِّصَة : مالكم مَنَعَة ولا رجال ولا حصون ، لو بعث رسول الله ﷺ إليكم مائة رجل لساقوكم إليه . فوقع الصُّلح بينهم أنّ لهم نصف الأرض بتربتها لهم ، ولرسول الله ﷺ نصفها ، فقبل رسول الله ﷺ ذلك . وهذا أثبت القولين [1] .

في هذا الخبر موقف جليل لمحيصة بن مسعود الأنصاري رضي الله عنه ، وذلك في امتناعه عن أخذ الرشوة التي قدمها له يهود فدك في مقابل أن يكتم عن رسول الله ﷺ ماقالوه له ، وقد أبى أن يحقق لهم مطلبهم ورفض قبول الرشوة ، مع أنه فرد واحد وقد كانوا في حال حرب وقد استعزَّ يهود فدك بيهود خيبر وأظهروا لمحيصة أن المسلمين لن يستطيعوا القضاء على أبطال اليهود المشهورين ، كل ذلك يجعل في الأمر احتمال أن يعتدوا على محيصة بالقتل ، ومع ذلك لم يُبَال بهم وأعلن لهم أنه لن يكتم عن رسول الله ﷺ مقالتهم وهذا يدل على شجاعته إضافة إلى ورعه واستقامته .

٢ – قال الواقدي في سياق روايته : وكان رسول الله ﷺ لما فتح خيبر سأله اليهود فقالوا : يامحمد ، نحن أرباب النخل وأهل المعرفة بها . فساقاهم [2] رسول الله ﷺ خيبر على شطر من التمر والزرع ، وكان يُزرع تحت النخل ، فقال رسول الله ﷺ : أقرّكم على ما أقركم الله . فكانوا على عهد رسول الله ﷺ حتى تُوفي ، وأبي بكر ، وصَدْر من خلافة عمر ، وكان يبعث عبد الله بن رواحة يخرُص عليهم النخل ، فكان يخرصها فإذا خرص قال : إن شئتم فلكم وتضمنون نصف

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٠٦ – ٧٠٧ .

(٢) أي اتفق معهم على سقي النخل والزرع وإصلاح ذلك ولهم في مقابل ذلك نصف الإنتاج .

ماخرصتُ ، وإن شئتم فلنا ونضمن لكم ماخرصتُ . وإنه خرص عليهم أربعين ألف وسق ، فجمعوا له حُليًا من حُليّ نسائهم فقالوا : هذا لك ، وتجاوزْ في القَسْم . فقال : يامعشر اليهود ، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ ، وماذاك يحملني أن أحيفَ عليكم . قالوا : بهذا قامت السموات والأرض [١] .

في هذا الخبر موقف جليل لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه في الورع والعدل ، فقد عرض عليه اليهود الرشوة من أجل أن يخون الأمانة ، وذلك بأن يزيد في نصيبهم من التمر عند الخرص ، فأبى أن يأخذ منهم ما عرضوا عليه ، وبيَّن لهم أن العدل يقتضي منه أن يعطيهم حقهم كاملا وإن كانوا أبغض خلق الله إليه ، فاعترفوا بحكم الحق والعدل وقالوا : بهذا قامت السموات والأرض .

إن تقديم هذا الطلب والطلب السابق من اليهود دليل على عدم تصورهم لما ينتجه الدين الصحيح من تصحيح للفكر وتقويم للسلوك ، ذلك لأن دينهم المحرف لا أثر له في سلوكهم ، ولو أنهم عقلوا ودرسوا دين الإسلام دراسة دقيقة وسَبَرُوا حياة الصحابة رضي الله عنهم لعرفوا أن تحقيق هذا المطلب بعيد المنال منهم .

إن الذين قطعوا حبال الصلة مع كل أحلافهم في الجاهلية مع ما يترتب على ذلك من ضرر مادي . . وإن الذين قابلوا في الميدان الحربي أصدقاءهم وحلفاءهم بل أقاربهم . .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٩٠ - ٦٩١ .

وإن الذين باعوا أنفسهم لله تعالى وطلبوا الموت في مظانّه رغبة في الشهادة في سبيل الله جل وعلا . .

وإن الذين سهروا الليالي يناجون الله تعالى وكابدوا ظمأ الهواجر تقربا إليه جل وعلا . .

إن هؤلاء العظماء لايتصور عاقل أن نفوسهم ستضعف حتى يأخذوا الرشوة ويخونوا الأمانة .

لقد كانت أخلاق الإسلام وأمور الحلال والحرام مطبقة عند هؤلاء الصفوة من قبل أن يرتفعوا إلى مستوى الجهاد الاختياري الذي يتنافسون على الاشتراك فيه ، ويتسابقون إلى المواطن الفدائية في ملاحمه .

* * *

٢ - فتح وادي القرى وتيماء -

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه :

فلما أتى رسول الله ﷺ الصهباء سلك على برمة حتى انتهى إلى وادي القُرى يُريد من بها من اليهود . وكان أبو هريرة يحدث قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ من خَيبر إلى وادي القرى ، وكان رفاعة بن زيد بن وهب الجُذامي قد وهب لرسول الله ﷺ عبداً أسود يقال له مدْعَم، وكان يُرحِّل لرسول الله ﷺ . فلما نزلوا بوادي القرى انتهينا إلى اليهود وقد ضوى إليها أناسٌ من العرب ، فبينا مدْعَم يحُطُّ رحْل النبي ﷺ، وقد استقبلَتْنا اليهود بالرمي حيث نزلنا ، ولم نكن على تَعبية وهم يصيحون في آطامهم ، فيُقبل سهم عائرٌ[1] فأصاب مدْعَمًا فقتله ، فقال الناس : هَنيئًا لك الجنة ! فقال رسول الله : كلاّ والذي نفسي بيده ، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم يُصبها المَقْسم تشتعل عليه ناراً. فلما سمع بذلك الناس جاءَ رجلٌ إلى النبي ﷺ بشراك[2] أو بشراكين . فقال النبي ﷺ : شراك من نار ! أو شراكان من نار .

وعبّى رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفّهم ، ودفع لواءَه إلى سعد ابن عُبادة ، ورايةً إلى الحُباب بن المُنْذر ، ورايةً إلى سهل بن حُنيف ، ورايةً إلى عَباد بن بشر . ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وأخبرهم : إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءَهم وحسابُهم على الله . فبرز رجلٌ منهم وبرز إليه الزُّبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فبرز

---

(١) أي لا يدري من هو راميه .

(٢) الشراك أحد سيور النعل التي تكون على وجهها .

إليه الزبير فقتله ، ثم برز آخر فبرز له عَليٌّ عليه السلام فقتله ، ثم برز آخر فبرز له أبو دجانة فقتله ، ثم برز آخر فبرز له أبو دجانة فقتله ، حتى قتل رسول الله ﷺ منهم أحدَ عشرَ رجلاً ، كلما قُتل رجلٌ دعا من بقي إلى الإسلام . ولقد كانت الصلاة تحضر يومئذ فيصلي رسول الله ﷺ بأصحابه ثم يعود فيدعوهم إلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رُمح حتى أعطوا بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنَّمه الله أموالهم وأصابوا أثاثًا ومتاعًا كثيرًا .

وأقام رسول الله ﷺ بوادي القُرى أربعة أيام ، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادي القرى ، وترك النخل والأرض بأيدي اليهود وعاملهم عليها . فلما بلغ يهودَ تيماءَ ما وطيءَ به رسول الله ﷺ خيبر وفدك ووادي القرى ، صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية ، وأقاموا بأيديهم أموالهم (١) .

في هذا الخبر مواقف وعبر فمن ذلك :

أولاً : قول النبي ﷺ في « مدْعَم » « والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم يصبها المقسم تشتعل عليه نارًا » فيه عبرة للمعتبرين ، فليس المطلب الوحيد لدخول الجنة أن يُقتل المسلم على يد الأعداء ، وإنما قبل ذلك لابد من الاستقامة على أمور الدين ، فلابد من التقوى وهي أداء جميع الواجبات واجتناب جميع المحرمات ، وقد يُكفِّر الله تعالى بالشهادة وغيرها من الأعمال الصالحة صغائر الذنوب

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٠٩ - ٧١١ ، وأخرج خبر مدْعَم الإمامان البخاري ومسلم - صحيح البخاري ، رقم ٤٢٣٤ ، كتاب المغازي ، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، رقم ١١٥ - .

كما في قول الله تعالى ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا** ﴾ [**النساء**: ٣١] وقول الرسول ﷺ « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفِّرات لما بينهن إذا اجْتُنِبَت الكبائر »[١] لكن الذنوب التي لها علاقة بحقوق الناس لايكفِّرها إلا إعادة الحقوق لأصحابها مع التوبة النَّصوح .

ولقد استفاد من هذه العبرة أحد الصحابة، وكان قد أخذ من مغانم خيبر سيوراً من الجلد وضعها شراكا أو شراكين لنعله ، وكان قد استهان بها فلما سمع كلام النبي ﷺ أتى بها ، فلم يستَهنْ بها النبي ﷺ بل أفاد بأنها على حقارتها توصل صاحبها إلى النار ، وفي هذا موعظة بليغة في احترام حقوق المسلمين وعدم التهاون بشيء منها .

ثانيًا : في هذا الخبر مواقف جهادية في مجال المبارزة لكل من الزبير ابن العوام ، وعلي بن أبي طالب ، وأبي دجانة سماك بن خَرَشة رضي الله عنهم ، وهؤلاء الثلاثة من الذين تتكرر مواقفهم في المبارزة في مواقف عديدة ، فكم أدخلوا على إخوانهم المسلمين من السرور بانتصارهم على أقرانهم ! وكم أدخلوا من الغم واليأس على أعدائهم المحاربين !

* * *

---

(١) صحيح مسلم، الطهارة رقم ٢٣٣(ص ٢٠٩)

٣ - مثل من سماحة النبي ﷺ وإعزاز دولة الإسلام - (سرية إلى رعْيَةَ السُّحيمي)

أخرج الإمام أحمد بإسناده إلى الشعبي عن رعْية السحيمي قال : كتب إليه رسول الله ﷺ في أديم أحمر فأخذ كتاب رسول الله ﷺ فرقع به دلوه ، فبعث رسول الله سرية فلم يَدَعوا له رائحة ولاسارحة ولا أهلاً ومالاً إلا أخذوه ، وانفلت عريانا على فرس له ليس عليه سترة ، حتى ينتهي إلى ابنته وهي متزوجة في بني هلال ، وقد أسلمت وأسلم أهلها ، وكان مجلس القوم بفناء بيتها ، فدار حتى دخل عليها من وراء البيت ، قال : فلما رأته ألقت عليه ثوبا ، قالت : مالك ؟ قال : كل الشر نزل بأبيك ، ماتُرك له رائحة ولاسارحة ولا أهل ولا مال إلا وقد أُخذ ، قالت : دُعيتَ إلى الإسلام ؟ قال : أين بعلك ؟ قالت : في الإبل ، قال : فأتاه فقال : مالك ؟ قال : كل الشر قد نزل به ماتُركتْ له رائحة ولاسارحة ولا أهل ولا مال إلا وقد أُخذ ، وأنا أريد محمدا أبادره قبل أن يقسم أهلي ومالي ، قال : فخذ راحلتي برحلها ، قال : لاحاجة لي فيها ، قال : فأخذ قعود الراعي وزوَّده إداوة من ماء ، قال : وعليه ثوب إذا غطَّى به وجهه خرجت استه وإذا غطى استه خرج وجهه وهو يكره أن يُعرف ، حتى انتهى إلى المدينة فعقل راحلته ثم أتى رسول الله ﷺ فكان بحذائه حيث يصلي ، فلما صلى رسول الله ﷺ الفجر قال : يارسول الله ابسط يدك فلأُبايعك ، فبسطها فلما أراد أن يضرب عليها قبضها إليه رسول الله ﷺ ، قال : ففعل النبي ﷺ ذلك ثلاثا قبضها إليه ، ويفعله[١] ،

---

(١) يعني أنه يريد أن يضرب على يد النبي ﷺ للبيعة .

فلما كانت الثالثة قال : من أنت ؟ قال : رعية السحيمي ، قال : فتناول رسول الله ﷺ عضده ثم رفعه ثم قال : يامعشر المسلمين هذا رعية السحيمي الذي كتبت إليه فأخذ كتابي فرقع به دلوه ، فأخذ يتضرع إليه يقول : قلت : يارسول الله أهلي ومالي ، قال : أما مالك فقد قسم ، وأما أهلك فمن قدرت عليه منهم [1] ، فخرج فإذا ابنه قد عرف الراحلة وهو قائم عندها ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : هذا ابني ، فقال : يابلال اخرج معه فسَلْه : أبوك هذا فإن قال نعم فادفعه إليه ، فخرج بلال إليه فقال : أبوك هذا ؟ قال : نعم ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ما رأيت أحداً استعبر إلى صاحبه ، فقال : ذاك جفاء الأعراب [2] .

في هذا الخبر موقفان لرسول الله ﷺ :

أولهما : ما قام به من إعزاز الإسلام ، وذلك حينما أرسل هذه السرية لتأديب رعية السحيمي الذي استهان بالإسلام وبرسول الله ﷺ .

وهكذا فإن بعض الناس تهيمن عليهم النخوة الجاهلية ، ويعتزون بمالديهم من مال وبنين وحلفاء فيغلب عليهم الكبر وتقسو قلوبهم ، فلا يكون فيها متسع لتَفَهُّم المبادئ السامية وإنما تغلب عليهم المنافع الدنيوية وحماية الجاه والموروثات الجاهلية ، فهؤلاء لايُجدي معهم الخطاب باللين والحسنى ، ولكن لابد من تبليغ الدعوة أولا ، وهذا مافعله

---

(١) يعني فخذه .

(٢) المسند ٥/ ٢٨٥ - ٢٨٦ .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أحمد بإسنادين أحدهما رجاله رجال الصحيح وهو هذا - مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٥ -

النبي ﷺ حينما كتب إلى رعية السحيمي . فحينما استهان هذا الرجل بهذا الكتاب فرقع به دلوه كان لابد من تلقينه درسا يكون عبرة له ولكل من سمع به ، فأرسل إليه النبي ﷺ تلك السرية التي جعلته وماله وأهله وداره كأمس الذاهب ، ولم ينج أحد غيره وهو على أسوإ حال .

ثانيًا : مثل من سماحة النبي ﷺ وعفوه عند المقدرة ، فهذا الرجل قد ارتكب جريمة كبرى في حقه ﷺ ، ولو أنه فعل هذا الفعل الشنيع بكتاب زعيم دنيوي ثم ظفر به لجعل على كل شجرة من لحمه قطعة ، لكن النبي ﷺ عفا عنه مع القدرة عليه ، والعفو عند المقدرة خلق عظيم لايوهب إلا لعظماء الرجال ، والنبي ﷺ قد حاز الكمال في كل مكارم الأخلاق .

* * *

٤ – سريتان إلى فروع من قبيلة هوازن –

١ – أخرج الواقدي من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه وأمّره علينا ، فَبَيَّتْنَا ناسًا من هَوازن ، فقتلتُ بيدي سبعةً أهل أبيات ، وكان شعارنا : أمت أمت(١) .

٢ – قال الواقدي : حدثنا أسامة بن زيد بن أسلم ، عن أبي بكر بن عمر بن عبد الرحمن ، قال : بعث رسول الله ﷺ عمر رضي الله عنه في ثلاثين رجلاً إلى عَجُز(٢) هَوازن بتُرَبَة (٣) ، فخرج عمر رضي الله عنه ومعه دليلٌ من بني هلال ، فكانوا يسيرون الليل ويكمُنون النهار ، وأتى الخبرُ هوازن فهربوا ، وجاء عمر محالَّهم فلم يلق منهم أحدًا . وانصرف راجعًا إلى المدينة حتى سلك النَّجدية ، فلما كان بالجدر قال الهلالي لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه : هل لك في جمع آخر تركته من خَثْعَم ، جاءُوا سائرين قد أجدَبَت بلادهم ؟ فقال عمر : لم يأمرني رسول الله ﷺ بهم ، إنما أمرني أصمد لقتال هوازن بتُربة . فانصرف عمر راجعًا إلى المدينة .

وذكر الواقدي أنها في شهر شعبان سنة سبع من الهجرة (٤) .

في هذين الخبرين مواقف منها :

أولاً : في خروج هذه السرايا الصغيرة إلى هذه المناطق البعيدة

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٢٢ .

(٢) عجز هوازن هم بنو نصر بن معاوية وبنو جشم بن بكر .

(٣) تربة تقع جنوب شرق الطائف وهي الآن بلدة معروفة .

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٧٢٢ .

مغامرة جريئة ، خصوصا وأنهم سيمرون في مناطق ماتزال تحت سلطان أعدائهم ، وإن مجرد الإقدام على غزو هذه المناطق البعيدة يعتبر تضحية كبيرة وشجاعة عالية ، ولقد شرُفَتْ هاتان السريتان بقيادة خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وحصل في سرية أبي بكر قتال ظفر فيه المسلمون ، أما في سرية عمر فلم يحصل قتال ، حيث هرب الأعداء من ديارهم ، وهذه نتيجة كافية في إرهاب العدو ، وقد كانت هوازن أظهرت العداء للمسلمين إلى أن تم القضاء على تجمعهم الكبير في حنين كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ثانيًا : موقف لعمر رضي الله عنه في طاعة أمر النبي ﷺ وعدم التقدم عليه ، وذلك حينما أشار الدليل عليه بغزو قبيلة أخرى قد رحلت من ديارها فأبى عليه وقال : « لم يأمرني النبي ﷺ بهم » وهذا مثل من الانضباط ولزوم النظام القائم في دولة الإسلام آنذاك ، وهو الذي يتمثل بتخطيط النبي ﷺ وتوجيهه وإدارته .

* * *

٥ – سَرِيَّتا بشير بن سعد وغالب الليثي إلى بني مُرَّة بفَدَك –

قال الواقدي : حدثني عبد الله بن الحارث بن الفُضَيل ، عن أبيه ، قال : بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد في ثلاثين رجلا إلى بني مُرَّة بفَدَك . فخرج فلقي رعاءَ الشاء فسأل : أين الناس ؟ فقالوا : هم في بَواديهم . والناس يومئذ شاتون لا يحضرون الماء ، فاستاق النَّعَم والشاءوعاد مُنحدرًا إلى المدينة ، فخرج الصَّريخ فأخبرهم فأدركه الدَّهْمُ منهم عند الليل [١] ، فباتوا يُرامونهم بالنَّبل حتى فنيتْ نبلُ أصحاب بَشير ، وأصبحوا وحمل المُرِّيُّون عليهم فأصابوا أصحاب بشير وولَّى منهم من ولى . وقاتل بشير قتالاً شديداً حتى ضُرب كَعْبُه ، وقيل : قد مات ، ورجعوا بنَعَمهم وشائهم . وكان أول من قدم بخبر السرية ومُصابها عُلْبَة بن زيد الحارثي . وأمهل بشير بن سعد وهو في القتلى ، فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فَدَك ، فأقام عند يهودي بفَدَك أيّامًا حتى ارتفع من الجراح ، ثم رجع إلى المدينة[٢] .

وهيأ رسول الله ﷺ الزُّبير بن العوام فقال : سر حتى تنتهي إلى مُصاب أصحاب بشير ، فإن ظفَّرك الله بهم فلا تُبق فيهم . وهيّأ معه مائتي رجل وعقد له اللواء ، فقدم غالب بن عبد الله من سرية قد ظفره الله عليهم ، فقال رسول الله ﷺ للزبير بن العوام : اجلس ! وبعث غالب بن عبد الله في مائتي رجل ، فخرج أسامة بن زيد في السرية حتى انتهى إلى مُصاب بشير وأصحابه ، وخرج معه عُلْبَة بن زيد .

---

(١) الدَّهم العدد الكثير .

(٢) ذكر الواقدي أن هذه السرية في شعبان سنة تسع .

قال الواقدي : حدثني أفلح بن سعيد ، عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد ، قال : كان مع غالب عُقبة بن عمرو أبو مَسعود ، وكعب بن عُجرة ، وأسامة بن زيد ، وعلبة بن زيد ، فلما دنا غالب منهم بعث الطلائع ، فبعث علبة بن زيد في عشرة ينظر إلى جماعة مَحَالِّهم ، حتى أوفَى على جماعة منهم ثم رجع إلى غالب فأخبره . فأقبل غالب يسير حتى إذا كان منهم بمنظر العين ليلاً ، وقد اجتلبوا وعَطَّنوا[1] وهَدؤوا ، قام فحمد الله وأثنى عليه بماهو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فإني أوصيكم بتقوى الله وحده لاشريك له ، وأن تُطيعوني ولاتعصوني ولاتُخالفوا لي أمرًا ، فإنه لا رأي لمن لايُطاع . ثم ألف بينهم فقال : يافلان أنت وفلان ، يافلان أنت وفلان - لايفارق كلّ رجل زميله - وإياكم أن يرجع إليّ أحدكم فأقول : أين فلان صاحبك؟ فيقول : لاأدري ، وإذا كبّرتُ فكَبِّروا . قال : فكبَّر وكَبَّروا ، وأخرجوا السيوف . قال : فأحطنا بالحاضر وفي الحاضر نَعَمٌ وقد عَطَّنوا مواشيهم ، فخرج إلينا الرجال فقاتلوا ساعةً ، فوضعنا السيوف حيث شئنا منهم ونحن نصيح بشعارنا : أمتْ أمتْ[2] .

في هذين الخبرين مواقف منها :

أولاً : ما أصاب سرية بشير بن سعد من القتل والجراح حيث هجم عليهم عدد كثير لاطاقة لهم به ومع ذلك ثبتوا لهم حتى قُتل أكثرهم وخرَّ قائدهم صريعا وتركوه وهم يظنون أنه في الموتى .

---

(١) أي سقوا الإبل ثم أناخوها وحبسوها عند الماء (لسان العرب ، ج١٧ ، ص ١٥٨) .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٧٢٣ - ٧٢٤ .

وهذا يبين لنا أنه ليس كل المعارك الحربية تكون لصالح المسلمين، بل - أحيانًا - يُستأصل أكثرهم كما في هذه المعركة ، ومع ذلك فإنهم صابرون محتسبون، ولم يمنعهم ما جرى في هذه المعركة من العودة إلى الجهاد ، بل كانوا أشد حماسا وأقوى معنوية ، وهذه صفة من يجاهد للآخرة ، لأنه قد حصَّل مايريد من الأجر سواء كانت له أو عليه .

ثانيًا : ما قام به النبي ﷺ من إعداد سرية أخرى لتأديب بني مرة وإعزاز دولة الإسلام ، وقد قام أصحاب هذه السرية بمسؤليتهم بقيادة غالب بن عبد الله الليثي الذي اشتهر بالحزم والحكمة وحسن الإدارة ، فأوقعوا ببني مرة وقتلوا منهم عدداً كبيراً .

وهكذا كان النبي ﷺ يهتم بإعزاز المسلمين وإظهارهم بمظهر القوة حتى لايُرام جنابهم ولايستهان بأمرهم ، ومن آثار هذه العزة أن بشير بن سعد قائد السرية الأولى لما تحامل على نفسه وانسحب من مكان المعركة ولجأ إلى رجل من اليهود في فدك لم يتعرض له أحد من اليهود حتى شفاه الله تعالى ورجع إلى المدينة بالرغم من أن المسلمين قد غزوا ديار اليهود في خيبر وفدك وفي المدينة قبل ذلك ، وذلك لأنهم يعلمون أن وراءه الأسُود الأشاوس بقيادة النبي ﷺ وأنهم لو قتلوه لأرسل إليهم النبي ﷺ من يهدم عليهم دارهم ويفني رجالهم .

* * *

٦ – سرية غالب الليثي إلى الميْفَعة[1] –

قال الواقدي : حدثني عبد الله بن جعفر ، عن ابن أبي عَوْن ، عن يعقوب بن عُتبة ، قال : لما قدم رسول الله ﷺ من غزوة الكُدُرْ أقام أياماً ما شاء الله أن يُقيم ، فقال له يسار مولاه : يارسول الله ، إني قد علمت غرةً من بني عبد بن ثعلبة ، فأرسل معي إليهم . فأرسل معه النبي ﷺ غالب بن عبد الله في مائة وثلاثين رجلاً .

خرج بهم يسار ، فظعن بهم في غير الطريق حتى فنيت أزوادهم وجهدوا ، واقتسموا التمر عدداً ، فبينما القوم ذات ليلة بعدما ساءَ ظنُّهم بيسار ، وظن القوم أن إسلامه لم يصح ، وقد انتهوا إلى مكان قد فحصه السيل ، فلما رآه يَسار كبّر قال : والله قد ظفرتم بحاجتكم ، اسلكوا في هذا الفحْص حتى ينقطع بكم . فسار القوم فيه ساعة بحسٍّ خَفيٍّ لايتكلمون إلا هَمْسًا حتى انتهوا إلى ضرْس[2] من الحرّة ، فقال يسار لأصحابه : لو صاح رجلٌ شديد الصوت لأسمع القوم ، فارتؤوا رأيكم ! .

قال غالب : انطلقْ بنا يا يسار أنا وأنت ، وندع القوم كميناً ، ففعلا ، فخرجنا حتى إذا كانا من القوم بمنظر العين سمعا حس الناس والرِّعاء والحُلُب ، فرجعا سريعين فانتهيا إلى أصحابهما ، فأقبلوا جميعًا حتى إذا كانوا من الحيّ قريبا ، وقد وعظهم أميرهم غالب ورغبهم في

---

(١) الميفعة : وراء بطن نخل إلى النقرة بناحية نجد ، بينها وبين المدينة ثمانية بُرُد . (الطبقات ، ج ٢ ، ص ٨٦)

(٢) الضرس : الأكمة . (الصحاح ، ص ٩٣٩) .

الجهاد ، ونهاهم عن الإمعان في الطلب ، وألَّف بينهم وقال : إذا كبرتُ فكبِّروا . فكبرَّ وكبروا جميعًا معه ، ووقعوا وسط مَحالِّهم فاستاقوا نَعَما وشاءً ، وقتلوا من أشرف لهم ، وصادفوهم تلك الليلة على ماء يقال له الميفعة . قال : واستاقوا النَّعم فحدروه إلى المدينة ، ولم يُسمَع أنهم جاءوا بأسرى [١] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : فيه صورة مما لقيه الصحابة رضي الله عنهم من الشدة والجوع في جهاد الأعداء ، فقد فني زاد هؤلاء القوم حتى صاروا يقتسمون التمر بالعدد ، وهي صورة تتكرر كما سبق لنا ، وهذا يدل على قوة احتمال الصحابة وصبرهم الجميل واحتسابهم الأجر عند الله تعالى .

ثانيًا : موقف جهادي نبيل لقائد هذه السرية غالب بن عبد الله الليثي حيث ذهب بنفسه طليعة لأصحابه مع الدليل ، والطلائع دائما فدائيون لاحتمال أن يشعر بهم العدو فيفتك بهم قبل أن يصلوا إلى أصحابهم .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٢٦ - ٧٢٧ .

٧ – سرية بشير بن سعد إلى الجناب –

قال الواقدي : حدثني يحيى بن عبد العزيز ، عن بشير بن محمد بن عبد الله بن زيد ، قال : قدم رجلٌ من أشجع يقال له حُسيل بن نُوَيرة ، وقد كان دليل النبي ﷺ إلى خَيبر ، فقال له رسول الله ﷺ : من أين ياحُسَيل؟ قال : قدمتُ من الجناب[1] . فقال رسول الله ﷺ : ماوراءك؟ قال : تركت جمعًا من غَطَفان بالجناب ، قد بعث إليهم عُيينة يقول لهم : إما تسيروا إلينا وإما نسير إليكم . فأرسلوا إليه أن سر إلينا حتى نزحف إلى محمد جميعًا ، وهم يُريدونك أو بعض أطرافك . قال : فدعا رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما ، فذكر لهما ذلك فقالا جميعًا : ابعث بشير بن سعد ، فدعا رسول الله ﷺ بشيراً فعقد له لواء ، وبعث معه ثلاثمائة رجل ، وأمرهم أن يسيروا الليل ويكمنوا النهار .

وخرج معهم حُسَيل بن نُوَيرة دليلاً ، فساروا الليل وكمنوا النهار حتى أتوا أسفل خيبر فنزلوا بسلاح[2] ، ثم خرجوا من سلاح حتى دنوا من القوم ، فقال لهم الدليل : بينكم وبين القوم ثُلُثا نهار أو نصفه ، فإن أحببتم كمنتم وخرجتُ طليعةً لكم حتى آتيكم بالخبر ، وإن أحببتم سرنا جميعًا . قالوا : بل نقدّمك . فقدّموه ، فغاب عنهم ساعةً ثم كرّ عليهم فقال : هذا أوائل سرْحهم فهل لكم أن تُغيروا عليهم ؟ فاختلف أصحاب النبي ﷺ فقال بعضهم : إن أغرنا الآن حذرَنا الرجالُ والعطَن[3] . وقال

(١) الجناب من أرض غطفان ، وذكره أيضًا الحازمي وقال : من بلاد فزارة . (عيون الأثر ، ج٢ ، ص ١٤٨) .

(٢) سلاح : موضع أسفل من خيبر . (معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٠١) . ويقال له أيضا : سلاج ، بالجيم . (وفاء الوفاء . ج ٢ ، ص ٣٢٣) .

(٣) المراد بالعطن هنا النساء – لسان العرب ١٣ / ٢٨٧ – .

آخرون : نغنم ما ظهر لنا ثم نطلب القوم . فشجعوا على النَّعَم ، فأصابوا نعمًا كثيرا ملأوا منه أيديهم ، وتفرَّق الرعاء وخرجوا سراعًا ، ثم حذروا الجمع فتفرق الجمع وحذروا ، ولحقوا بعلياء بلادهم .

فخرج بشير بأصحابه حتى أتى مَحالَّهم فيجدها وليس بها أحد . فرجع بالنعم حتى إذا كانوا بسلاح راجعين لقوا عينًا لعُيينة فقتلوه، ثم لقوا جمع عُيَينة ، وعُيَينة لايشعر بهم فناوشوهم ، ثم انكشف جمع عُيينة وتبعهم أصحاب النبي ﷺ فأصابوا منهم رجلاً أو رجلين فأسروهما أسرًا. فقدموا بهما على النبي ﷺ فأسلما فأرسلهما النبي ﷺ [1] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : في اتفاق أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على تأمير بشير بن سعد رضي الله عنه دلالة على تفوقه في المجال القيادي والإداري ، وقد كانت السِّمة الظاهرة في ذلك العصر وضع الرجل المناسب في المكان المناسب من غير نظر إلى شهرته ومكانته الاجتماعية ، وإنما الذي كان يلاحظ هو إمكانية نجاحه في العمل الذي يتم توجيهه إليه بأعلى قدر ممكن ، فلذلك كُتب النجاح لكل الأعمال التي وجهها رسول الله ﷺ .

ثانيًا : حصل المسلمون من المكاسب في هذه الغزوة على قدر كبير وذلك أنهم فرَّقوا جمع غطفان الأول الذي سيجتمع معه عيينة بن حصن ثم يغيرون على المدينة ، ثم فرقوا جمعهم الثاني الذي كان بقيادة عيينة ، فبذلك فشلت خطتهم في الاجتماع لغزو المدينة ،إضافة إلى ماغنمه المسلمون من أموال القوم وفي ذلك إضعاف لهم عن الإقدام على حرب المسلمين .

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٢٧ - ٧٢٨. وذكر الواقدي أنها كانت سنة سبع .

٨ - عمرة القضاء -

قال ابن إسحاق : فلما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خيبر ، أقام بها شهري ربيع وجمادَيَين ورجبا وشعبان ورمضان وشوالا ، يبعث فيما بين ذلك من غزوه وسراياه ﷺ . ثم خرج في ذي القعدة في الشهر الذي صدّه فيه المشركون معتمراً عُمرة القضاء ، مكان عمرته التي صدوه عنها (١) .

وخرج معه المسلمون ممن كان صُدَّ معه في عُمرته تلك ، وهي سنة سبع ، فلما سمع به أهلُ مكة خرجوا عنه ، وتحدّثَتْ قُريش بينها أن محمداً وأصحابه في عسرة وجَهد وشدّة .

قال ابن إسحاق : فحدثني من لا أتهم ، عن ابن عبَّاس ، قال : صفُّوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه ؟ فلما دخل رسول الله ﷺ المسجدَ اضطبع بردائه ، وأخرج عَضُدَه اليمنى ، ثم قال : رحم الله امرءاً أراهم اليومَ من نفسه قوّةً ، ثم استلم الرُّكْن ، وخرج يُهَرْول وَيُهَرول أصحابهُ معه ، حتى إذا واراهُ البيت منهم ، واستلم الركنَ اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ، ومشى سائرها . فكان ابن عباس يقول : كان الناس يظنون أنها ليست عليهم ، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحَيّ من قُريش للذي بلغه عنهم ، حتى إذا حجّ حَجّة الوداع فلزمها فمضت السنّة بها .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ حين دخل مكة في تلك العُمرة دخلها وعَبدُ الله بن رواحة آخذ بخطام

---

(١) قال ابن هشام : واستعمل على المدينة عويف بن الأضبط الدِّيلي .

ناقته يقول :

خَلُّوا بني الكُفَّار عن سبيله　　خُلُّو فكلُّ الخَــير في رسـوله

يـاربِّ إني مُــؤمنٌ بقـيله　　أعْــرفُ حــقّ الله في قَبُوله

ثم ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ أقام بمكة ثلاثة أيام ، وأن المشركين أرسلوا إليه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش فقالوا له : إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا .

ثم ذكر انصراف النبي ﷺ إلى المدينة في شهر ذي الحجة [1] .

وأخرج الإمام البخاري خبر عمرة القضاء مختصرا في عدة روايات ، وقد زاد في رواية البراء بن عازب رضي الله عنهما قوله : فخرج النبي ﷺ ، فتبعته ابنةُ حمزةَ تُنادي : ياعم ياعم ، فتناولها عليٌّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام : دُونك ابنة عمك حمِّليها . فاختصم فيها عليٌّ وزيدٌ وجعفرٌ ، قال علي : أنا أخذتها وهي بنتُ عمي . وقال جعفرٌ : ابنةٌ عمي وخالتها تحتي . وقال زيدٌ : ابنة أخي . فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال : الخالة بمنزلة الأم . وقال لعلي : أنت مني وأنا منك . وقال لجعفر : أشبهت خَلقي وخُلقي . وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا . وقال عليّ : ألا تتزوجُ بنت حمزة ؟ قال : إنها ابنةُ أخي من الرضاعة » .

وجاء في رواية ابن عباس رضي الله عنهما : « قدم رسول الله ﷺ وأصحابه فقال المشركون : إنه يقدم عليكم وقد وَهَنَتْهم حُمَّى يثرب ، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين ،

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٩٧ - ٥٠١ .

ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم»[1] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : في تصرف النبي ﷺ الذي واجه به دعايات الأعداء المغرضة حينما وصفوا المسلمين بالضعف ، حيث أمر النبي ﷺ أصحابه بأن يَجرُوا مسرعين في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف ، وقال في ذلك «رحم الله امرءًا أراهم اليوم من نفسه قوة» .

وهذا التصرف الحكيم يبين لنا أهمية الحفاظ على سمعة المسلمين المعنوية والمادية لأن شعور الأعداء الثابت بقوة المسلمين يجعلهم يعيشون دائمًا في رعب من المسلمين ، فإذا فكروا في غزوهم ترددوا في ذلك كثيرًا ، وإذا عزموا وغزَوهم ضعفوا أمامهم ولم يثبتوا عند لقائهم .

وقد أراد زعماء الأعداء أن ينتهزوا هذه الفرصة ليرسِّخوا في أذهان أتباعهم ضعف المسلمين ففوَّت عليهم رسول الله ﷺ هذه الفرصة حينما أمر أصحابه بسرعة السير في الطواف .

ثانيًا : في الخبر الأخير بيان اختصام علي بن أبي طالب وجعفر بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة في بنت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهم أجمعين ، وهو مثل من التنافس على فعل الخير فكل واحد منهم يريد أن يكفلها لينال بذلك أجر كفالة اليتيم ، وكل واحد منهم أدلى بما يسوِّغ أحقيته في ذلك ، فعليّ وجعفر ابنا عمها ولكنْ يزيدُ جعفر في كون خالتها زوجته ، ويحتج عليّ أيضا بكونه سبق إلى أخذها ، وزيد يذكر أنها ابنة أخيه وكان النبي ﷺ قد آخَى بينه وبين حمزة ، ولكن النبي ﷺ

(١) صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٢٥١ - ٤٢٥٩(٧/ ٤٩٩ - ٥٠٩).

في حكمه بينهم قد نظر إلى مصلحة البنت فقضى بها لخالتها وقال : الخالة بمنزلة الأم ، ثم إنه ﷺ من كمال خلُقه وعظمة مشاعره أراد أن يطيِّب قلوب هؤلاء الصفوة الذين تنافسوا على الخير فذكر منقبة لكل واحد منهم حيث قال لعلي : « أنت مني وأنا منك » وقال لجعفر : «أشبهت خَلْقي وخُلُقي » وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا » فما أعدله ﷺ حاكما ! وما أعظمه مربيًا !!

* * *

٩ - إسلام عمرو بن العاص -

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب ابن أبي أوس الثقفي ، عن حبيب بن أبي أوس الثقفي ، قال : حدثني عمرو بن العاص منْ فيه ، قال : لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالاً من قُريش ، كانوا يرون رأيي ، ويَسْمعون مني ، فقلت لهم : تعلَّموا والله إني أرى أمرَ محمد يعلو الأمور علوّاً مُنكرا ، وإني قد رأيت أمرًا ، فما ترون فيه ؟ قالوا وماذا رأيت ؟ قال : رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده ، فإن ظهر محمدٌ عَلَى قومنا كنا عند النجاشي ، فإنا أن نكون تحت يديه أحُبّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد ، وإن ظهر قوُمنا فنحن مَنْ قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير ، قالوا : إن هذا لرأي ، قلت : فاجمعوا لنا ما نهْديه له ، وكان أحبَّ مايُهدَى إليه من أرضنا الأَدَم[١] . فجمعنا له أدَمًا كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه .

فو الله إنا لعنده إذ جاءَه عمرو بن أمية الضمْري ، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه . قال : فدخل عليه ثم خرج من عنده . قال : فقلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمية الضمري ، لو قد دخلتُ على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه ، فضربتُ عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قُريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسولَ محمد . قال : فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال : مرحبا بصديقي ، أهديت إليّ من بلادك شيئًا ؟ قلت : نعم ، أيها الملك ، قد أهديت إليك

---

(١) يعني الجلد .

أدمًا كثيراً ، قال : ثم قربته إليه ، فأعجبه واشتهاه ، ثم قلت له : أيها الملك ، إني قد رأيت رجلا خرج من عندك ، وهو رسول رجل عدوّ لنا ، فأعطنيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا ، قال : فغضب ، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننتُ أنه قد كسره ، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقًا منه : ثم قلت له : أيها الملك ، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه ، قال : أتسألني أن أعطيك رسولَ رجل يأتيه الناموس الأكبر [١] الذي كان يأتي موسى لتقتله ؟ ! قال : قلت : أيها الملك ، أكذاك هو ؟ قال : ويحك ياعمرو أطعْني واتبعه ، فإنه والله لعلَى الحقّ ، وليظهرنَّ على من خالفه ، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قال : قلت : أفتبايعني له على الإسلام ، قال : نعم : فبسط يده ، فبايعته على الإسلام ، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه ، وكتمتُ أصحابي إسلامي .

ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ لأسلم ، فلقيتُ خالدَ بن الوليد ، وذلك قُبيل الفتح ، وهو مُقبل من مكة ، فقلت : أين ياأبا سُليمان؟ قال : والله لقد استقام المَنْسم [٢] ، وإن الرجل لنبيّ ، أذهبُ والله فأسلم ، فحتى متى ؟ قال : قلت : والله ماجئتُ إلا لأسلم ، قال : فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ، ثم دنوتُ ، فقلت : يارسول الله ، إني أبايعك على أن يُغفر لي ماتقدم من ذنبي ، ولا أذكر ما تأخر ، قال : رسول الله ﷺ ياعمرو بايع ، فإن

---

(١) يعني جبريل عليه السلام .

(٢) هذا مثل يضرب لظهور الأمر ووضوحه بحيث لم يبق فيه لبس ولا شك .

الإسلام يجُبُّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجبُّ ماكان قبلها ، قال : فبايعته ، ثم انصرفت [1] .

وذكره الحافظ الهيثمي بمثل رواية ابن إسحاق وقال : رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال : حدثني عمرو بن العاص من فيه إلى أذني ، ورجالهما ثقات [2] .

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه ، وأضاف في إحدى رواياته أن ذلك كان لهلال شهر صفر سنة ثمان [3] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : موقف للنجاشي رحمه الله تعالى حينما غضب لرسول الله ﷺ غضبا شديداً بلغ منه أنه ضرب أنفه تلك الضربة المنكرة ، وهذا دليل على قوة إيمانه بالإسلام ، وقد أتبع الإنكار العملي بالإنكار القولي حيث قال : أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر لتقتله؟ .

وكان لقوة إنكار النجاشي القولي والعملي أثر على عمرو بن العاص رضي الله عنه حيث أزال من نفسه الشك في نبوة رسول الله ﷺ ، ثم لما رأى النجاشي زوال الشك عن عمرو بادر إلى دعوته إلى الإسلام فأسلم على يديه ، ونال بذلك النجاشي أجراً عظيمًا حيث جذب إلى الإسلام رجلا من عظماء قريش .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٥١ - ٣٥٤.

(٢) مجمع الزوائد ٩ / ٣٥٠ - ٣٥١ .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٧٤١ - ٧٤٥ .

لقد كان عمرو بن العاص من دهاة العرب وحكمائهم ولقد أدرك بثاقب بصره أن دينًا يعرف أحقيته العجم البعيدون عن موطن الرسالة، الغرباء عن لغة هذا الدين لاينبغي لمثله أن يجهله .

ثانيًا : سهولة إسلام عمرو وسرعة استجابته لَّما تبين له الحق، وهذا دليل على تجرد قلبه من الهوى المنحرف ، فحينما عرف طريق الحق سار فيه ، ولو كان صاحب هوى لظل على هواه حتى مع معرفة الحق .

لقد كان إسلام عمرو بن العاص نصراً كبيراً للإسلام والمسلمين فلقد سخَّر عقله الكبير ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام ، وخسر الكفار بإسلامه خسارة كبيره لأنهم كانوا يُعدُّونه لعظائم الأمور التي تحتاج إلى دهاء ومقدرة على التأثير وخاصة فيما يتعلق بعدائهم مع المسلمين .

* * *

١٠ - إسلام خالد بن الوليد -

أخرج الواقدي من حديث يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن بن المغيرة ابن الحارث بن هشام قال : سمعت أبي يُحدث يقول : قال خالد بن الوليد : لما أراد الله بي من الخير ما أراد قذف في قلبي حُبَّ الإسلام. وحضرني رُشدي ، وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمد، فليس موطنٌ أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني مُوضع في غير شيء وأنَّ محمداً سيظهر .

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعُسْفان ، فقمتُ بإزائه وتعرّضت له ، فصلَّى بأصحابه الظهر آمنًا منَّا ، فهممنا أن نغير عليه ، ثم لم يُعزَم لنا - وكانت فيه خيرةٌ - فاطَّلع على ما في أنفسنا من الهُموم فصلَّى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منِّي مَوقعًا وقلت : الرجل مَمنوع ! وافترقنا وعدل عن سَنَن خيلنا وأخذ ذات اليمين .

فلما صالح قُرَيشًا بالحديبية ودافعته قُريشٌ بالرَّواح قلت في نفسي : أي شيء بقي ؟ أين المذهب إلى النَّجاشي ؟ فقد اتبع محمداً ، وأصحابه آمنون عنده ، فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرجُ من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم مع عجم تابعًا ، أو أقيم في داري فيمن بقي ؟ فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ عُمرة القَضيَّة ، فتغيبتُ فلم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عُمرة القَضية، فطلبني فلم يجدني فكتب إليّ كتابًا فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإني لم أرَ أعجب من ذَهاب رأيك عن الإسلام وعَقْلُك

عَقْلُك! ومثل الإسلام جَهلَه أحدٌ؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به. فقال: ما مثله جَهل الإسلام! ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين، لكان خيرًا له، ولقدّمْناه على غيره. فاستدركْ يا أخي ما فاتك، فقد فاتَتْكَ مواطنُ صالحة.

قال: فلما جاءَني كتابه نشطتُ للخروج، وزادني رغبةً في الإسلام وسرّني مقالةُ رسول الله ﷺ. قال خالد: وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جديبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت إنَّ هذه لَرُؤيا. فلما قدمتُ المدينة قلت: لأذكرنَّها لأبي بكر. قال: فذكرتُها فقال: هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضِّيق الذي كنت فيه من الشرك.

فلما أجمعتُ الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيتُ صفوان بن أُمية فقلت: يا أبا وهب، أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أكَلَةُ رأس [1]، وقد ظهر محمد على العرب والعَجم، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإنَّ شرف محمد لنا شرفٌ. فأبى أشدَّ الإباء وقال: لو لم يبق غيري من قُريش ما اتبعته أبدًا. فافترقنا وقلت: هذا رجلٌ مَوتور يطلب وترًا، قد قُتل أبوه وأخوه ببدر. فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل الذي قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، قلت: فاطو ماذكرتُ لك. قال: لا أذكره.

وخرجتُ إلى منزلي فأمرت براحلتي تُخرج إليّ، فخرجتُ بها إلى أن ألقى عثمان بن طلحة فقلت: إنَّ هذا لي لصديقٌ ولو ذكرتُ له ما

---

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل. (الصحاح، ص ١٦٢٤).

أريد! ثم ذكرت من قُتل من آبائه فكرهتُ أذكِّره ، ثم قلت : وماعليَّ وأنا راحلٌ من ساعتي . فذكرتُ له ما صار الأمر إليه فقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب في جُحْر ، لو صُبَّ عليه ذَنوبٌ[1] من ماء لخرج . قال : وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه ، فأسرع الإجابة وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتي بفَخٍّ مُناخةٌ .

قال : فاتَّعدتُ أنا وهو بيَأجَج ، إن سبقني أقام وإن سبقتُه أقمتُ عليه . قال : فادَّلجنا سَحَرًا فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجَج ، فغدونا حتى انتهينا إلى الهَدَّة ، فنجد عمرو بن العاص بها فقال : مرحبًا بالقوم! فقلنا : وبك ! قال : أين مسيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟ قال : فما الذي أخرجكم ؟ قلنا : الدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ . قال : وذلك الذي أقدمني .

قال : فاصطحبْنا جميعًا حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحَرَّة ركابنا ، فأُخبر بنا رسولُ الله ﷺ فسُرَّ بنا ، فلبستُ من صالح ثيابي ، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ ، فلقيني أخي فقال : أسرعْ فإنَّ رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسُرَّ بقدومك وهو ينتظركم . فأسرعتُ المشي فطلعت عليه ، فما زال يتبسّم إليّ حتى وقفت عليه ، فسلَّمت عليه بالنبوة فرد علي السلام بوجه طلق ، فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فقال : الحمد لله الذي هَداك ! قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوت ألا يُسلمك إلا إلى الخير . قلت : يارسول الله قد رأيتَ ماكنتُ أشهدُ من تلك المواطن عليك مُعانداً عن الحق فادعُ الله أن يغفرها لي فقال رسول الله ﷺ : الإسلام يجُبّ ما كان قبله ، قلت : يارسول الله ، على

(١) الذنوب : الدلو العظيمة (النهاية ، ج٢ ، ص ٥١) .

ذلك ؟ فقال : اللهم اغفر لخالد كلّ ما أوضع فيه من صَدٍّ عن سبيلك . قال خالد : وتقدّم عمرو ، وعثمان ، فبايعا رسولِ الله ﷺ .

وكان قدومنا في صفر سنة ثمان ، فو الله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما حَزَبه [١] .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولاً : في قول خالد عن المواطن التي شهدها ضد الإسلام « وأنا أرى في نفسي أني مُوضع في غير شيء » في قوله هذا عبرة لكل الذين يحاربون الإسلام ، فقد كان يحارب المسلمين وهو يعلم في قرارة نفسه أنهم سيظهرون بقيادة رسول الله ﷺ ، فهذا الشعور في نفسه يعتبر مظهرا من مظاهر الانهزام الداخلي الذي يكون لدى بعض النفوس التي لديها قبول للخير ، ولكنها تعيش تحت ضغوط قوية ، تمنعها من قبوله . . وفي ذلك كبت للطاقات وإهدار للكفاءات ، حيث يُرغم الإنسان نفسه على الدخول في أمور لايؤمن بها ولايتحمس لها الحماس الكافي لبذل الجهد، فيعطي في الدفاع قليلاً من طاقته ، ويبقى معطلا لايستفاد منه كثيرا ، ونستطيع أن ندرك هذا بالمقارنة بين ما أنتجه خالد في مجاله الذي برز فيه وهو القيادة الحربية في السنوات التي سبقت إسلامه وبين إنتاجه في السنوات التي تلت إسلامه ، وسنجد أن نسبة نجاحه قبل الإسلام ضئيلة جدا .

ثانيًا : لما أراد النبي ﷺ دعوة خالد بن الوليد إلى الإسلام على يد أخيه الوليد أثنى عليه بقوله « ما مثله جهل الإسلام ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ولقدَّمناه على غيره » لقد

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٤٥ - ٧٤٩ .

وصف رسول الله ﷺ خالدا بسداد الرأي ورجاحة العقل ، وتعجَّب كيف يجهل الإسلام من وهبه الله تعالى مثل هذا العقل والرأي ، ثم وعد أخاه بأنه لو أسلم لكان له شأن ولقدَّمه على غيره .

لقد كان لهذه الكلمات البليغة أعظم الأثر في تحول قلب خالد وتوجهه نحو الإسلام ، ولقد كان رسول الله ﷺ موفقا لكل التوفيق في فهم توجهات النفوس ومواطن قيادها ، فلقد أدرك حب خالد للزعامة والقيادة فوعد بتمكينه من ذلك وتقديمه على غيره في هذا المجال ، إلى جانب الإشادة بفكره وعقله .

لقد انتزع النبي ﷺ بهذه الكلمات كل الجواذب التي تجعل خالدا يظل على الشرك الذي لم يكن مقتنعا به إلا بمقدار ما حصل له فيه من قيادة وتصدُّر ، فلما كان ما هيأه له المشركون سيحصل له إذا دخل في الإسلام ، واطمأن بأنه لو أسلم لن يكون في آخر القائمة ولن يكون مهملا شجعه ذلك على قطع وساوس الشيطان ورجح ما اطمأنت إليه نفسه من الميل إلى الإسلام فعزم على الدخول فيه .

وهكذا كسب المسلمون إلى صفهم زعيما كبيراً من زعماء مكة وعلما من أعلامها ، وكتب الله تعالى على يديه صفحات بيضاء من تاريخ المسلمين الجهادي في أواخر حياة النبي ﷺ وفي عهد أبي بكر وأول عهد عمر رضي الله عنهما .

ولقد كان إسلام خالد مع إسلام عمرو بن العاص أعظم خذلان واجهه المشركون في مكة ، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ لما جاءه البشير يبشره بإسلامهما « لقد أعطت مكة المقادة بعد هذين » .

* * *

١١ - سرية غالب الليثي إلى بني المُلوَّح -

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى : وكان من حديثها أن يعقوب بن عُتبة بن المغيرة بن الأخنَس حدثني عن مُسلم بن عبد الله بن خُبيب الجُهنيَّ [١] عن جُندَب بن مكيث الجهنيِّ . قال : بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الكلبي . كلب بن عوف بن ليث ، في سرية كنت فيها . وأمره أن يَشنَّ الغارةَ على بني المُلوَّح . وهم بالكديد . فخرجنا . حتى إذا كنا بقُدَيْد لقينا الحارث بن مالك ، وهو ابن البرْصاء الليثي ، فأخذناه . فقال : إني جئت أريد الإسلام . ماخرجت إلا إلى رسول الله ﷺ . فقلنا له : إن تك مسلما فلن يَضيرك رباطُ ليلة . وإن تك على غير ذلك كنا قد استوثقنا منك . فشددناه رباطا . ثم خلفنا عليه رجلا من أصحابنا أسود . وقلنا له : إن عازَّك فاحتزَّ رأسه .

قال : ثم سرنا حتى أتينا الكديد عند غروب الشمس ، فكنَّا في ناحية الوادي ، وبعثني أصحابي رَبيئة لهم [٢] ، فخرجت حتى آتي تَلاًّ مُشرفًا على الحاضر [٣] فأسندت فيه ، فعلوتُ في رأسه ، فنظرت إلى الحاضر ، فو الله إني لمنبطح على التل ، إذ خرج رجل منهم من خبائه ، فقال لامرأته : إني لأرى على التل سوادًا [٤] ما رأيته في أوّل يومى ، فانظري إلى أوْعيتك هل تَفقدين منها شيئا ، لاتكون الكلاب جرَّتْ

(١) في المطبوع زيادة « عن المنذر » وهو خطأ والتصويب من رواية الإمام أحمد .

(٢) يعني طليعة لهم ليعرف خبر العدو .

(٣) أي مكان إقامة القوم .

(٤) أي شخصًا .

بعضها[1] ، قال : فنظَرَتْ ، فقالت : لا والله ما أفقد شيئا ، قال : فناوليني قوسي وسهمين ، فناولَتْه ، قال : فأرسل سهمًا ، فو الله ما أخطأ جنبي ، فأنزعُه ، فأضعه ، وثَبَّتُّ مكاني ، قال : ثم أرسل الآخر ، فوضعه في منكبي ، فأنزعُه فأضعه ، وثبتُّ مكاني ، فقال لامرأته : لو كان ربيئة لقوم لقد تحرّك ، لقد خالطه سَهماي ، لا أبالك إذا أصبحت فابتغيهما ، فخذيهما لايمْضُغهما عليّ الكلاب ، قال : ثم دخل .

قال : وأمْهلناهم ، حتى إذا اطمأنوا وناموا ، وكان في وجه السحر ، شَنَنَّا عليهم الغارة ، قال : فقتلنا ، واستَقْنا النَّعَم ، وخرج صريخ القوم ، فجاءنا دَهْم [2] لاقبل لنا به ، ومضينا بالنعم ، ومَرَرنا بابن البرصاء وصاحبه ، فاحتملناهما معنا ، قال : وأدركَنا القوم حتى قربوا منا ، قال : فما بيننا وبينهم إلا وادي قُدَيد فأرسل الله الوادي بالسيل من حيث شاء تبارك وتعالى ، ومن غير سحابة نراها ، ولامطر ، فجاء بشيء ليس لأحد به قوة ، ولايقدر على أن يجاوزه ، فوقفوا ينظرون إلينا ، وإنا لنسوقُ نَعَمَهُم ، ما يستطيع منهم رجل أن يُجيز إلينا ونحن نَحْدُرُها سراعا ، حتى فُتْناهم ، فلم يقدرُوا على طلبنا .

قال : فقدمنا بها على رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : وحدثني رجل من أسْلَم ، عن رجل منهم : أنّ شعار أصحاب رسول الله ﷺ كان تلك الليلة : أمتْ أمت . فقال راجز من المسلمين وهو يحدوها :

---

(١) يعني ظن أن الذي فوق التل وعاء من أوعيتهم .

(٢) أي عدد كثير .

أَبَى أبُــو القاسم أن تَعَزّبي [١] في خَضل نَباتُه مُغْلوْلب[٢][٣]

وأخرجه الواقدي بإسناد ابن إسحاق وذكر نحوه ، وجاء في آخره :
فما أنسى رجز أميرنا غالب :

أَبَى أبــو القاسم أن تعزَّبي وذاك قول صادق لم يكذب
في خَـضـل نباته مغلولب صُـفْرٌ أعَاليه كلَوْن المُذهَب

وذكر في رواية له عن حمزة بن عمر الأسلمي قال : كنت معهم وكنا بضعة عشر رجلا [٤] .

وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد وذكر نحــوه[٥] .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : عند أبي داود طرف من أوله ، رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات فقد صرح ابن إسحاق بالسماع في رواية الطبراني [٦] .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : فيما قام به جندب بن مكيث الجهني في مُهمة الاستطلاع لأصحابه ، فحافظ محافظة تامة على الاستخفاء حتى أدى مهمته بنجاح .

---

(١) أي تقيمي في المرعى .

(٢) الخضل النبات الأخضر المبتل ، والمغلولب الكثير الذي يغلب الماشية حين ترعاه .

(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٦٨ - ٣٧٠ .

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٧٥٠ - ٧٥١ .

(٥) الفتح الرباني ٢١ / ١٢٨ .

(٦) مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٢ .

ونقف قليلا لنتأمل هذا الموقف الرائع الذي تجلت فيه مظاهر الفداء والتضحية . حيث قدّم هذا الصحابي الجليل مصلحة الجماعة على مصلحته الفردية ، فقد تحمَّل وقع السهام في جسده وهو صابر محتسب مع وجود الاحتمال القوي لذهاب نفسه في أحد هذه السهام فيما لو أصاب مقتلا . . تحمَّل ذلك كله من أجل أن لايَدُلَّ بتحركه على وجود جماعته ، الأمر الذي يؤدي غالبا إلى فشل ما قصدوا إليه حيث سيأخذ الأعداء احتياطهم الكامل ، ولربما فاجؤوا المسلمين على غرة فأوقعوا بهم ، فتحمل الأذى ساعة من أجل هذه المصالح الكبيرة ، وهذا نموذج عال لاتبلغه الإنسانية غالبا بغير الإسلام . بينما هو متوفر بكثرة لدى المسلمين وخاصة في عصور الرقي الديني كما في عصر الصحابة رضي الله عنهم .

وإننا إذا بحثنا عن السبب الدافع لهذه التضحية البالغة وإذابة الشخصية الفردية في روح الجماعة نجد أن ذلك متركز في الوزن الصحيح والتقويم الدقيق لمنزلة الدنيا ومنزلة الآخرة ، فكلما عظمت الحياة الدنيا في عين الإنسان كان ميالا إلى الأنانية واعتبار الذات وتتفاوت درجات ذلك بمقدار اهتمام الإنسان الدنيوي ، وكلما عظمت الآخرة في عين الإنسان كان أقرب إلى اعتبار الجماعة وتناسي المنافع الذاتية .

ثانيًا : في هذا الخبر عبرة للمعتبرين ، فلقد أنقذ الله تعالى أولياءه المؤمنين المجاهدين في سبيله من هلاك متوقع حيث تجمع الأعداء عليهم وأتوهم بجمع لاطاقة لهم به ، فأجرى الله عز وجل السيل في الوادي بشكل مفاجئ حيث لامطر حولهم ولا أي حال من مقدمات المطر وبسرعة تمنع الأعداء من تجاوزه إليهم . فأصبح الأعداء ينظرون إلى

المسلمين وأموالُهم بأيديهم وهم عاجزون عن الوصول إليهم .

فهل يبقى بعد هذا لدى أي عاقل متبصر في الأمور أدنى شك في أن الله تعالى مع أوليائه المؤمنين بنصره وتأييده ، وضد أعدائه الكافرين ببعث جنوده التي لم يتوقعوها ولم يحسبوا لها حسابا ؟ ! .

ولقد أثبت الله تعالى معيته لأوليائه المؤمنين وأثبتها رسول الله ﷺ في آيات وأحاديث كثيرة ، وإذا كان بعض المتشككين والحيارى لايتأثرون بسماع هذه الأخبار فما جوابهم عن مثل هذه الواقعة التي تجلَّت فيها منَّة الله تعالى على عباده المؤمنين ، وتنزَّلت نقمته على أعدائه الكافرين؟! .

* * *

١٢ - سرية شجاع بن وهب إلى السِّيِّ -

أخرج الواقدي من حديث عمر بن الحكم ، قال : بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب في أربعة وعشرين رجلا إلى جمع من هوازن بالسِّيِّ ، وأمره أن يُغير عليهم ، فخرج فكان يسير الليل ويكمُن النهار حتى صبَّحهم وهم غارُّون ، وقد أوعز إلى أصحابه قبل ذلك ألاَّ يُمعنوا في الطَّلَب ، فأصابوا نَعَمًا كثيراً وشاءً ، فاستاقوا ذلك كله حتى قدموا المدينة واقتسموا الغنيمة ، وكانت سهامهم خمسة عشر بعيراً كل رجل ، وعدلوا البعير بعشر من الغنم ، وغابت السرية خمس عشرة ليلة .

وذكر الواقدي أن هذه السرية كانت في شهر ربيع الأول سنة ثمان (١) .

هذه السرية تضاف إلى السرايا السابقة التي يُقصد منها إرهاب قبيلة هوازن حتى لاتجتمع لحرب المسلمين ، وقد نجح أصحاب هذه السرية في الاستخفاء مع طول الطريق ، وتجاوزوا مناطق تحت سلطان الأعداء ، حتى ظفروا ببغيتهم فأوقعوا بالأعداء وتم المقصود من إرسال هذه السرية .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٥٣ - ٧٥٤ .

١٣ - سرية قطبة بن عامر إلى خثعم -

أخرج الواقدي من حديث ابن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ بعث قطبة بن عامر بن حديدة في عشرين رجلاً إلى حيٍّ من خثعم بناحية تبالة [١]، وأمره أن يشُنَّ الغارة عليهم ، وأن يسير الليل ويكمُن النهار ، وأمره أن يُغذَّ السيرَ . فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها ، قد غيبوا السلاح ، فأخذوا على الفتق حتى انتهوا إلى بطن مسْجَب[٢] ، فأخذوا رجلاً فسألوه فاستعجم عليهم ، فجعل يصيح بالحاضر[٣] ، فقدمه قطبة فضرب عنقه . ثم أقاموا حتى كان ساعة من الليل ، فخرج رجلٌ منهم طليعة فيجد حاضر نَعَم ، فيه النَّعم والشاء فرجع إلى أصحابه فأخبرهم ، فأقبل القوم يدبون دبيبًا يخافون الحَرَس ، حتى انتهوا إلى الحاضر وقد ناموا وهدؤوا فكبّروا وشنّوا الغارة ، فخرج إليهم رجال الحاضر ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتي كثرت الجراح في الفريقين . وأصبحوا وجاء الخثعميون الدَّهْم[٤] ، فحال بينهم سيلٌ أتيٌّ[٥] ، فما قدر رجلٌ واحدٌ منهم يمضي حتى أتى قطبة على أهل الحاضر ، فأقبل بالنعم والشاء والنساء إلى المدينة ، فكان سهامهم أربعة أربعة ، والبعير بعشرة من الغنم بعد أن أخرج الخُمُس ، وكان في صفر سنة تسع[٦] .

---

(١) وتقع جنوب شرق الطائف وهي معروفة اليوم .

(٢) موضعان جنوب الطائف .

(٣) أي بقومه الذين نزلوا على الماء .

(٤) أي العدد الكثير .

(٥) أي أتى من مكان بعيد ولم يكن حولهم مطر .

(٦) مغازي الواقدي ٢/ ٧٥٤ - ٧٥٥ .

كذلك فإن المقصود بهذه السرية إرهاب هذه القبيلة حتى لاتجتمع مع القبائل المجاورة لحرب المسلمين ، وقد نجح أصحاب السرية في الاستخفاء حتى تجاوزوا منطقة مكة والطائف إلى أن وصلوا إلى تبالة فأوقعوا بخصومهم وأضعفوهم ماديا بما غنموا من أموالهم ، وقد نجح أصحاب السرية في تحقيق الهدف من إرسالهم .

أما السيل الذي أتى من غير سحاب ولامطر لإنقاذ هذه السرية من جيش كبير لاطاقة لهم به فهو كرامة ساقها الله جل وعلا إلى أوليائه المؤمنين لإخراجهم من ذلك الحرج الذي وقعوا فيه ، وقد سبق الكلام مفصلا على موضوع مشابه لهذا الموضوع .

* * *

مواقف وعبر
فى سرية مؤتة

١ - سبب غزوة مؤتة -

قال محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى : حدثني ربيعة بن عُثمان ، عن عمر بن الحكم ، قال : بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عُمَير الأزدي ثم أحد بني لهْب ، إلى ملك بُصرى بكتاب ، فلما نزل مُؤتة عرض له شُرحْبيل بن عمرو الغساني فقال : أين تُريد ؟ قال : الشام . قال : لعلَّك من رُسُل محمّد ؟ قال : نعم ، أنا رسول رسول الله ﷺ . فأمر به فأوثق رباطًا ، ثم قدّمه فضرب عُنُقَه صَبْرًا . ولم يُقتَل لرسول الله ﷺ غيره ، فبلغ رسول الله ﷺ الخبرُ فاشتد عليه ، ونَدَب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومن قتله ، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجُرْف ، ولم يُبيِّن رسولُ الله ﷺ الأمرَ .

فلمّا صلَّى رسول الله ﷺ الظهر جلس وجلس أصحابُه ، وجاءَ النُّعمان بن فنحص اليهودي ، فوقف على رسول الله مع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قُتل زيد بن حارثة فجَعفر بن أبي طالب ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رَواحة ، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليَرْتَض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم .

فقال النعمان بن فُنْحُص : أبا القاسم ، إن كنت نبيًا فسمَّيتَ من سمّيت قليلاً أو كثيراً أُصيبوا جميعًا ، إن الأنبياء في بني إسرائيل إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان ، فلو سمّى مائة أُصيبوا جميعًا . ثم جعل اليهودي يقول لزيد بن حارثة : اعهدْ ، فلا ترجع إلى محمد أبدًا إن كان نبيًا ! فقال زيد : فأشهدُ أنه نبيٌّ صادقٌ بارٌ .

فلما أجمعو المسير وقد عقد رسول الله ﷺ لهم اللواء ودفعه إلى زيد ابن حارثة - لواء أبيض - مشى الناس إلى أمراء رسول الله ﷺ يُودّعونهم ويدعون لهم ، وجعل المسلمون يُودّع بعضُهم بعضًا ، والمسلمون ثلاثةُ آلاف ، فلما ساروا من معسكرهم نادى المسلمون : دفع الله عنكم ، ورَدَّكم صالحين غانمين (١) .

تُبيِّن لنا رواية الواقدي أن سبب بعث سرية مؤتة ماجرى من أحد زعماء الغساسنة من إقدامه على قتل رسول رسول الله ﷺ بهذه الصورة الشنيعة حيث ربطه ثم ضرب عنقه صبرا ، وتبين الرواية أن هذا الأمر اشتد على رسول الله ﷺ فندب الناس لغزو أهل الشام .

فهذه السرية تقع ضمن دائرة الغزوات والسرايا التي قَصد بها النبي ﷺ إعزاز الإسلام ودولته والانتقام من الأعداء الذين انتهكوا حرمة دولة الإسلام فاعتدوا على رجالها .

وإنه لموقف كبير أن يبعث النبي ﷺ ثلاثة آلاف مجاهد في قتل رجل من رجال دولة الإسلام ، وهذا يعني عزة المسلم وحرمته وكرامته في دار الإسلام .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٥٥ - ٧٥٦ .

٢ – وقفات إيمانية من عبد الله بن رواحة –

قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزّبير ، قال : بعث رسول الله ﷺ بَعْثَهُ إلى مُؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال : إن أُصيب زيدٌ فجعفرُ بن أبي طالب على الناس ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس .

فتجهز الناسُ ثم تهيئوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضر خروجهم ودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم . فلما وُدِّع عبد الله بن رواحة مع من وُدّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى ، فقالوا : مايبكيك يابن رواحة ؟ فقال : أما والله مابي حبُّ الدنيا ولاصَبَابة بكم ، ولكني سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آيةً من كتاب الله عزّ وجل ، يذكر فيها النار ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا** ﴾ [مريم : ٧١] ، فلست أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود ، فقال المسلمون : صَحبكم الله ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين ، فقال عبد الله بن رواحة :

لكنَّني أسألُ الـرَّحـمن مغفرةً ... وضربةً ذات فرْع تقذفُ الزَّبدا[١]

أو طعنة بيَـدَيْ حَـرَّانَ مُجهزةً ... بحـربة تُنفذ الأحشاء والكبدا [٢]

حتى يُقال إذا مرُّوا على جدثي[٣] ... أرشـده الله من غاز وقد رشدا

---

(١) قوله « ذات فرع » يريد واسعة يسيل دمها والزبد أصله الرغوة التي تعلو السيل وأراد به هنا ما يعلو الدم الذي ينبثق من الطعنة .

(٢) الحرَّان الشديد العطش والمراد به المتعطش للقتل .

(٣) الجدث القبر .

قال ابن إسحاق : ثم إن القوم تهيئوا للخروج ، فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ فودّعه ، ثم قال :

فثبَّت الله مـا آتـاك مـن حَسَن ... تَثبيتَ موسى ونصْراً كالذي نُصروا

إني تَفَـرَّسْتُ فيكَ الخيرَ نافلةً ... اللهُ يعلـم أنــي ثـابتُ البـصَر

أنـتَ الرسولُ فمنْ يُحْرَمْ نوافله ... والـوجْـهَ منه فقد أزرى بـه القدرُ

قال ابـن هشام : أنشدني بعض أهل العلم بالشعر هذه الأبيات :

أنتَ الرسول فمن يحرم نـوافـله ... والـوجْهَ منهُ فقد أزْرَى بـه القَدَرُ

فثبَّـت الله مـا آتاك مـن حسَن ... في المرسلين ونصراً كـالذي نُصروا

إنــي تفرّست فيـك الخير نافلة ... فـراسة خالفتْ فيك الـذي نظروا

يعني المشركين ، وهذه الأبيات في قصيدة له [1] .

في هذا الخبر مواقف منها ما كان من عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حينما بكى لَمَّا تذكر قول الله تعالى ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ وقوله : فلست أدري كيف لي بالصدَر بعد الورود ! وهو موقف من مواقف الخوف والخشية يدل على قوة تمثُّل الحياة الآخرة في فكر ابن رواحة وحضور قلبه مع أهوالها .

وقد ورد في معنى الآية مارواه ابن أبي حاتم والطبري من حديث عبد الله بن مسعود قال : يَرِدُ الناس جميعا الصراط ، وورودهم قيامهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٥٠٢ - ٥٠٤ ، ورواه الإمام الطبراني من حديث عروة بن الزبير رحمه الله ورضي عن أبيه ، ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله ثقات إلى عروة - مجمع الزوائد ٦/ ١٥٧ - ١٥٩ - .

حـول النار ، ثم يصـدرون عن الصـراط بأعمـالهم ، فـمنهم من يمرُّ مـثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كـأجـود الخيل ، ومنهم من يمر كـأجـود الإبل ، ومنهم من يمـر كعَدْو الرجل، حتى إن آخرهم مَرّاً رجل نوره على موضع إبهام قدميه ، يمر فيتكفَّأ به الصراط ، والصراط دَحْض مزلة ، عليه حسَك كحسك القتاد[1] ، حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس[2] .

وقوله « فمنهم من يمر كالبرق » الخ هو معنى قول الله تعالى ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٧٢] .

* * *

(١) القتاد شجر صلب له شوكة كالإبر (القاموس المحيط) .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٤١ .

٣ - خروج المسلمين ووصولهم ومشورتهم -

قال ابن إسحاق : ثم خرج القومُ ، وخرج رسولُ الله ﷺ ليُشيِّعهم حتى إذا ودَّعهم وانصرف عنهم ، قال عبد الله بن رواحة :

خَلَفَ السلامُ على امْرئ ودّعته ... في النَّخْل خيرَ مُشَيِّع وخليل

ثم مضوا حتى نزلوا مَعان ، من أرض الشام ، فبلغ الناسَ أن هرقل قد نزل مآب، ، من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم، وانضمّ إليهم من لخم وجُذام والقَيْن وبَهْراء وبَليّ مئة ألف منهم ، عليهم رجل من بلي ثم أحدُ إرَاشة ، يقال له : مالك بن زافلة ، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على مَعان ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ ، فنخبرُه بعدد عدوّنا ، فإمَّا أن يُمدّنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له .

قال : فشجع الناسَ عبدُ الله بنُ رواحة ، وقال : يا قوم ، والله إنَّ التي تكرهون لَلّتي خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناسَ بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسنيين : إما ظهور وإما شهادة . قال : فقال الناس : قد والله صدق ابنُ رواحة ، فمضى الناس ، فقال عبد الله بن رواحة في مَحبسهم ذلك :

جَلَبْنا الخَيلَ من أجَإٍ وفَرْعٍ ... تُغَرُّ مِن الحَشيش لها العكُومُ(١)

---

(١) أجأ بفتح أوله وثانيه وفي آخره همزة هو أحد جبلى طيء والآخر يقال له سلمى ، وفرع ويقال أيضا فرغ بالغين المعجمة اسم موضع ، وتغرّ يعني تطعم قليلا قليلا ، والعكوم جمع عكم بكسر فسكون وهو ما يشد ويجمع به من ثوب ونحوه .

حَـذَوْناها من الصَّـوَّان سِبْتًا ... أزلَّ كـــأنَّ صَفْحــتَه أديمُ[1]

أقـــامَت لَيلَتين عـلى مَعان ... فأعــقب بعدَ فترتها جُمُـومُ[2]

فُــــرحْنا والجياد مُسَوَّمات ... تَنَفَّسُ في مَناخرها السَّمُـومُ[3]

فَـــــلا وأبي مآبَ لنأتِيَنْها ... وإن كـانت بها عَـربٌ ورُومُ

فَـعَبَّأنا أعنَّـتها فَـجــاءتْ ... عَــوابسَ والغُـبارُ لَها بَريم[4]

بــذي لَجب كأنّ البيْض فيه ... إذا بَــرزتْ قوانسها النُّجُومُ[5]

فـــراضية المَعيشة طلَّقَتهَا ... أسنَّـتها فتنْكــحُ أو تَـئيمُ

قال ابن هشام : ويروى : « جلبنا الخيل من آجام قُرْح» ، وقوله : «فعبأنا أعنتها » عن غير ابن إسحاق .

قال ابن إسحاق : ثم مضى الناسُ ، فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حُدِّث عن زيد بن أرقم ، قـال : كنت يتـيمـا لعبـد الله بن رواحـة في حجْره ، فخرج بي في سفره ذلك مُردفي على حَقيبة رَحله ، فو الله إنه ليسير ليلةً إذ سمعته وهو ينشد أبياته هذه :

---

(١) حذوناها : جعلنا لها أحذية وهي النعال ، والصوان الحجارة الملساء ، والسبت بكسر السين النعال التي تصنع من جلد مدبوغ ، وأزل يعني أملس ، والأديم الجلد .

(٢) معان : كسحاب اسم موضع بالأردن ، والجموم الاستراحة التي يعقبها النشاط والاستعداد للكرّ .

(٣) مسومات : هو من السوم بمعنى الرعي أي مرسلات في المرعى أو من السمة بمعنى العلامة أي معلمات .

(٤) الأعنة : جمع عنان بكسر العين وهو اللجام ، ومعنى عبأنا هيأنا ، والبريم يعني به الحزام .

(٥) بذي لجب : أي بجيش كبير له حركة وصوت ، والقوانس جمع قونس وهو أعلى البيضة .

إذا أدَّيْتني وحملت رَحْلي ... مسيرةَ أربع بعدَ الحساء [1]

فشأنُك أنعُمٌ وخلاك ذمٌّ ... ولا أرجعْ إلى أهل ورائي [2]

وجاء المسلمون وغادَروني ... بأرض الشام مُشتهيَ الثّوَاء [3]

وردّك كلُّ ذي نسب قَريب ... إلى الرحمن مُنقطع الإخاء

هنالك لا أبالي طلعَ بَعْل ... ولانَخْل أسافلُها رواء [4]

فلما سمعتهنّ منه بكيت . قال : فخفقني بالدِّرَّة [5] وقال : ماعليك يالُكَعْ [6] أن يرزقني الله شهادة وترجع بين شُعْبتي الرّحْل ! .

قال : ثم قال عبد الله بن رواحة في بعض سفره ذلك وهو يرتجز :

يازيدُ زيدَ اليَعْمَلات الذُّبَّل ... تطاول الليلُ هُديتَ فانزل [7][8]

في هذا الخبر مواقف منها :

---

(١) الحساء هنا جمع حسي بكسر فسكون وهو ماء يغور في الرمل إذا نقب عنه وجد .

(٢) قوله (فشأنك أنعم وخلاك ذم) أي قد أديت ما عليك فلا عتب ولا لوم عليك ، وقوله (ولا أرجع) بسكون العين مجزوما على الدعاء كأنه يدعو على نفسه أن يستشهد في هذه الغزوة فلا ينقلب بعدها إلى أهله .

(٣) الثواء الإقامة يقال ثوى بالمكان يثوى ثواء أقام .

(٤) البعل هو الذي يشرب بعروقه من الأرض ويقابله العذى وهو الذي يشرب من ماء المطر ، ورواء بكسر الراء هو الأخضر الناعم من أغصان الشجر وغيرها واحده ريا أنثى الريان .

(٥) أي ضربني بالسوط ضربًا خفيفًا .

(٦) يعني يااللئيم .

(٧) اليعملات جمع يعملة وهي الناقة السريعة الذؤوب في السير ، والذبَّل التي أضعفها طول السفر فهزلت وقل لحمها .

(٨) سيرة ابن هشام ٣/ ٥٠٤ - ٥٠٧ ، وهو بقية حديث عروة السابق انظر ص ١١٠ .

أولا : توقف القادة لمدة يومين لإجراء المشورة مع أهل الرأي من المسلمين ، والشورى بين القادة وأهل الر أي هي المنهج السديد الذي طبقه رسول الله ﷺ وعلمه أصحابه ، فالقائد في الإسلام لايستبدُّ بالرأي وحده بل يجب عليه أن يستشير أهل الرأي والخبرة .

وقد رجع الجميع بعد هذه المشورة إلى رأي عبد الله بن رواحة الذي يقضي بالإقدام على قتال الأعداء وإن كان عددهم كبيرا .

وإذا نظرنا إلى عدد المسلمين الذي لايزيد عن ثلاثة آلاف وإلى عدد الكفار الذي يبلغ مائتي ألف تبين لنا أن الأعداء ضِعْفُ المسلمين بأكثر من ست وستين مرة ، ولهذا فإن الذين رأوا التوقف والكتابة لرسول الله ﷺ معذورون لبُعْد النسبة بين الجيشين وأنَّ الدخول في حرب كهذه قد يعتبر مجازفة تضر بسمعة المسلمين .

ثانيًا : موقف عظيم لأولئك الصحابة حيث عزموا على القتال لَمَّا شجعهم ابن رواحة وذكَّرهم بمطلب عزيز لديهم جميعا . وهو الشهادة في سبيل ا لله تعالى ، وقد لاح لهم موطن من مواطنها حيث يفوقهم الأعداء عددا بأكثر من ست وستين مرة ، وحينما تذكروا هذا المطلب الكريم الذي حدده لهم عبد الله بن رواحة بقوله « فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة » انطلقوا جميعا ولم يتخلف منهم أحد عن الاستجابة ، وهذا دليل واضح على قوة إيمانهم وصدق عزائمهم إذ أن في واقعهم مع الأعداء غير المتكافئ ما يسوغ تراجعهم عن قتالهم ، ولو كان الجيش يضم مستويات متباعدة في الإيمان لوقع الخلاف بينهم ، فبمثل هؤلاء الأماجد الكرام تُغزَى الأمم وتفتتح الممالك .

وإن هذا المعنى الكريم الذي دعا عبد الله بن رواحة المسلمين إليه هو ما أوصى الله تعالى به المؤمنين أن يخاطبوا به المنافقين المخذّلين عن الجهاد في سبيل الله تعالى حيث يقول ﴿ **قل هل تربّصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ يعني هل تنتظرون بنا أيها المنافقون في خروجنا لقتال الأعداء من النتائج إلا أن نظفر بإحدى النتيجتين اللتين كل واحدة منهما هي حُسْنَى النتائج في مجالَي الحياة والموت ؟ ! فإما حياة عزيزة بالنصر على الأعداء . وإما موت كريم بالظفر بالشهادة ، وكلاهما خير وسعادة .

ثالثًا : في هذا الخبر شعور رائع لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، ففي الأبيات الأولى يحمِّس المسلمين ويحثهم على الإقدام على جهاد الأعداء ويبين فيها استعدادهم للحرب ، وفي الأبيات الأخيرة يتغنَّى بالشهادة في سبيل الله تعالى ، ولاشك أن الذي يدخل المعركة وهو يتمنى الشهادة ستكون طاقته القتالية مضاعفة .

ثم صار يتمنى الشهادة في قصيدته المذكورة ، وفيها تقوية للمؤمنين ورفع لمشاعر من لم يرتفع منهم إلى هذا المستوى .

* * *

٤ - ابتداء المعركة ومواقف للقادة الثلاثة -

قال ابن إسحاق : فمضى الناس ، حتى إذا كانوا بتُخوم[١] البلقاء لَقِيَتْهم جموع هرقل ، من الروم والعرب ، بقرية من قُرى البلقاء يقال لها مشارف ، ثم دنا العدوّ ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ، فالتقى الناس عندها ، فتعبأ لهم المسلمون ، فجعلوا على ميمنتهم رجلا من عُذرة ، يقال له : قُطْبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار يقال له : عَبَاية بن مالك [٢] .

ثم التقى الناس واقتتلوا ، فقاتلَ زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شَاطَ في رماح القوم[٣] .

ثم أخذها جعفر فقاتل بها ، حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء ، فعقرها ، ثم قاتَل القوم حتى قُتل . فكان جعفرٌ أوّلَ رجل من المسلمين عَقَرَ في الإسلام .

وحدثني يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزّبير ، عن أبيه عباد ، قال : حدثني أبي الذي أرضعني[٤] ، وكان أحَد بني مُرّة بن عوف ، وكان في تلك الغزوة غزوة مُؤتة قال : والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتَحمَ عن فرس له شقراء ، ثم عَقرها ثم قاتَل حتى قُتل وهو يقول :

ياحـبَّذا الجـنةُ واقتـرابُـها ... طـيبَةً وبـاردًا شـرابُـها

---

(١) التخوم هي الحدود التي تفصل بين الأقاليم .

(٢) قال ابن هشام : ويقال عبادة بن مالك .

(٣) شاط أي هلك تقول شاط الرجل إذا سال دمه وهلك .

(٤) أي أبوه من الرضاع .

والـرومُ رومٌ قـــد دَنا عذابُها كـافـــرةٌ بعـــيدةٌ أنسابُها

عَـلَـيّ إذ لاقيتها ضرابُها [1]

فلما قُتل جعفر أخذ عبد الله بن رَواحة الراية وتقدَّم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردَّد بعض التردّد، ثم قال:

أقسمتُ يـانفس لتَـنزلـنَّه لتنـــزلـنَّ أوْ لتُـكْـرَهـنّـه

إن أجلب الناسُ وشَدّوا الرَّنّهْ [2] مـالي أراك تكـرهين الجَنَّة

قـد طـالَ ما قد كنت مُطمئنة هل أنت إلا نُطْفة في شَنَّهْ [3]

وقال أيضًا:

يـــــانفس إلا تُقْتَـلي تموتي هذا حمام المَوْت قد صَليت [4]

ومـا تمنَّيت فـقـــد أُعْــطيت إن تفـعلي فعْلــهما هُديت

يريد صاحبيه: زيدا، وجعفرا، ثم نزل. فلما نزل أتاه ابن عمّ له بعَرْق [5] من لحم فقال: شُدّ بهذا صُلْبَك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهَس منه نهْسَةً ثم سمع الحَطْمَة في ناحية

---

(١) قال ابن هشام: وحدثني من أثق به من أهل العلم: أن جعفَر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعتْ، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضُديه حتى قُتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء. ويقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة، فقطعه بنصفين.

(٢) الرنة صوت فيه ترجيع كالبكاء.

(٣) أي ماء مهين أودع في قربة قديمة.

(٤) أي ذقت حره.

(٥) العَرْق بفتح العين وسكون الراء العظم فيه شيء من اللحم.

الناس ، فقال : وأنت في الدنيا ! ثم ألقاه من يده ، ثم أخذ سيفه فتقدّم ، فقاتل حتى قُتل[1] .

مواقف وعبر في هذا الخبر :

أولا : في هذا الخبر صور من الشجاعة والبطولة ، فقد غامر القائد الأول زيد بن حارثة رضي الله عنه بنفسه حتى هلك بين رماح الأعداء بعدما بذل جهدا كبيرا في جهادهم .

وأظهر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه شجاعة فائقة حينما عقر فرسه تحدّيًا للأعداء ، وإيذانًا بالثبات أمامهم مهما تكن الظروف والأحوال .

وفي شَدْوه بالجنة ونعيمها في شعره دليل على تمثل مشاهد الحياة الآخرة في أذهان ذلكم الجيل الرباني ، وكونُه ربَط ذلك بتهديد الكفار عند اللقاء بالتصميم على القتال شاهد على أثر الإيمان بالآخرة في سلوك هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم في السلم والحرب ، فإن الذي يندفع إلى إزهاق نفسه من أجل الظفر بنعيم الجنة سيدفع ماهو أهون من ذلك من أجلها .

ولقد وردت أحاديث تدل على قوة احتمال جعفر وصبره على القتال، فقد أخرج الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٥٠٨ - ٥١١ .

وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الطبراني وقال : رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ١٥٩ -١٦٠ .

عنهما قال : « أمَّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : إن قُتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة ، قال عبد الله : كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية» [١] .

فأي قوة كان يتمتع بها هذا الصحابي الجليل ؟ وماهذا الصبر الحديدي الذي تغلَّب به على آلام أكثر من تسعين جرحا في جسده قبل أن يَخرَّ صريعا ؟ وإذا كانت هذه السهام هي التي أصابته فكم هي السهام التي اتَّقاها أو طاشت عنه ؟ !

لاشك أنه مَثَلٌ رائع لعظماء الرجال ، وأنه بصبره العظيم قد جعل من نفسه قدوة عالية لأفراد جيشه .

وإنني لأعجب من جعفر وقوة احتماله ومقدرته على خوض مثل هذه المعركة العنيفة مع أنه قضى أكثر من عشرة أعوام في الحبشة في حياة هادئة وقبل ذلك عاش في مكة ولم يكن فيها قتال ، ثم يتحمل تسعين إصابة قبل أن يخرَّ صريعا مع جهد القتال !

ولكن إذا تذكرنا أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يكثرون من الصلاة وخاصة صلاة الليل علمنا أن الصلاة تمنحهم قسطا كبيرا من الرياضة البدنية ، إلى جانب اهتمامهم بالرماية وركوب الخيل وغير ذلك من فنون القتال .

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٢٦١ (٧/ ٥١٠) .

أما القائد الثالث وهو عبد الله بن رواحة رضي الله عنه فإنه أخذ الراية وتقدم بها ، وقد جاء في الرواية أنه جعل يَستنْزل نفسه ويتردد بعض التردد .

إنه حينما تردد بعض الشيء وألحَّ على نفسه لتُقْدم على تحمل القيادة لم يكن قبل ذلك بمعزل عن القتال ، بل كان يقاتل كجندي من المسلمين ، فلما آلت إليه مسئولية قيادة هذا الجيش وهو يصارع الأهوال حصل منه ماحصل من بعض التردد ، خصوصا وأن القائد الذي يحمل الراية يكون مستهدفًا من قبَل الأعداء ، وتُركَّز عليه الهجمات القوية ، وإنَّ تردده هذا وإن كان يسيرا مع استعداده للشهادة وتمنِّيه إياها منذ أن كان في المدينة وحثه أصحابه على دخول هذه المعركة لَيَدُلُّنا على ضراوة هذه المعركة وشدة وطئها على المسلمين لضآلة عددهم إلى جانب عدد الأعداء .

وإن في هذه الأبيات الشعرية التي صدرت من هذا الصحابي الجليل قبيل استشهاده لعبرةً عظيمة ومثلاً عاليا في محاسبة النفس وتعنيفها على التكاسل والتخاذل عن الوصول إلى معالي الأمور ، فهو يُقسم على نفسه أن تنزل طائعة أو مكرهة إلى ساحة المعترك الدامي ، ويُذكِّرها بأن التردد في ذلك يُعتبر عزوفًا عن طلب الجنة ، كما يذكرها بماضيها المطمئن حيث عاشت طويلا في دعة وسكينة فما عليها لو صبرت لحظات في مواجهة الأهوال التي يعقبها السعادة الدائمة ، ولاينسى تذكيرها بأنها لم تكن شيئًا مذكوراً في بداية خلقها .

ثم يعود في البيتين الأخيرين إلى تذكير نفسه بأنها لامفرَّ لها من الموت فليكن الموت بالشهادة التي طالما تمناها قبل ذلك، إلى أن أقدم رضي الله عنه فنال ما تمنى من ذلك .

* * *

٥ - موقفان لثابت بن أقرم -

١ - قال الواقدي : فحدثني ربيعة بن عثمان . عن المقبري ، عن أبي هريرة . قال : شهدتُ مُؤتة . فلما رأينا المشركين رأينا ما لاقِبَل لنا به من العَدَد والسلاح والكراع[١] والديباج والحرير والذهب ، فبرق بصري ، فقال لي ثابت بن أقرم[٢] : يا أبا هريرة . مالك ؟ كأنك ترى جموعًا كثيرةً. قلت : نعم . قال : تشهدنا ببدر ؟ إنَّا لم نُنصَر بالكثرة![٣] .

وهكذا كان ثابت بن أقرم ثابت الجأش لم يتأثر بكثرة الروم ليقينه بأن النصر ليس بكثرة الجيش وإنما هو بتأييد الله ونصره ، وذلك مترتب على تحقيق أسباب النصر التي منها وأهمها التوكل على الله تعالى وحده ومنها الصبر ، وطاعة القائد ، واتفاق الكلمة .

٢ - قال الواقدي : حدثني محمد بن صالح ، عن رجل من العرب، عن أبيه ، قال : لما قُتل ابن رواحة انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قطُّ في كل وجه . ثم إن المسلمين تراجعوا . فأقبل رجلٌ من الأنصار يُقال له ثابت بن أقرم ، فأخذ اللواء وجعل يصيح بالأنصار ، فجعل الناس يثوبون إليه من كل وجه وهم قليل وهو يقول : إليَّ أيُّها الناس! فاجتمعوا إليه . قال : فنظر ثابت إلى خالد بن الوليد فقال : خُذ اللواء يا أبا سُليمان ! فقال : لا آخذُه ، أنت أحقّ به ، أنت رجلٌ لك سنٌّ، وقد شهدتَ بدرًا . قال ثابت : خُذْه أيُّها الرجل فو الله ما أخذته إلا لك ! فأخذه خالدٌ فحمله ساعة ، وجعل المشركون يَحملون عليه،

---

(١) يعني الخيل .

(٢) هو ثابت بن أقرم البلوي حليف الأنصار رضي الله عنه .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٧٦٠ .

فثبت حتى تكَرْكَر المشركون ، وحمل بأصحابه ففض جَمعًا من جمعهم، ثم دهمه منهم بَشَرٌ كثيرٌ ، فانحاش المسلمون فانكشفوا راجعين (١) .

فهذا الموقف يذكر لثابت بن أقرم حينما جمع المسلمين أولاً ثم حينما أعطى القوس باريها فأعطى الراية أبا سليمان خالد بن الوليد ، ولم يحتفظ بالراية له لكونه شهد بدرًا وله سمعة عند قومه من الأنصار ، وهذا دليل على تجرده من حظ النفس وإخلاصه لدينه ، فقد اختار أعظم الموجودين خبرة بالحرب وأقواهم على القيادة وإن كان من غير قومه .

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٦٣ .

٦ - نهاية المعركة وموقف خالد بن الوليد -

جاء في رواية ابن إسحاق أن خالد بن الوليد لما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم ، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس .

وهذا يعني أن خالداً قد انسحب بالمسلمين من المعركة انسحابا منظَّما لم يتبعه ملاحقة من الأعداء ، وأنه لم يحصل للمسلمين نصر على اعدائهم .

وذكر قول المسلمين للجيش لما رجعوا « يافُرَّار فررتم في سبيل الله» وقول النبي ﷺ « ليسوا بالفرار ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله »[١] .

أما القول الآخر فهو أن المسلمين قد انتصروا على أعدائهم نصراً مؤزراً وأوقعوا فيهم مقتلة عظيمة .

وبهذا قال الإمام الزهري كما في رواية أخرجها الإمام الطبراني عنه أنه قال بعد ذكر المعركة باختصار : وأخذ اللواء زيد بن حارثة فقُتل ثم أخذه جعفر فقتل ثم أخذه ابن رواحة فقتل ثم اصطلح المسلمون بعد أمراء رسول الله ﷺ على خالد بن الوليد فهزم الله العدو وأظهر المسلمين .

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : رجاله ثقات[٢] .

وذكر الواقدي هذا القول عن عطاف بن خالد قال : لما قُتل ابن رواحة مساءً بات خالد بن الوليد ، فلما أصبح غدا ، وقد جعل مُقدِّمته ساقته ، وساقته مُقدمته ، ومَيمنته ميسرته ، وميسرته مَيمنته ، فأنكروا ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم ، وقالوا : قد جاءَهم مَدَدٌ ! فرُعبوا

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٥١١ ، ٥١٥ .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١٦٠ .

فـانـكشفوا مُـنهزمين ، فـقُتـلوا مَـقتلة لـــم يُقـتلها قـــومٌ»[1] .

وهذا القـول هو الراجح لأنه هو الذي يتـفق مع مـا أخـرجـه الإمـام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه « أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[2] .

فـهـذا صـريـح في أن المسلمين قد انتـصـروا على أعـدائهم في نهـاية المعركة .

أما الأخبار التي فيها أن أهل المدينة قالوا لأهل مؤتة « أنتم الفَرَّارون» فقد حملها الحافظ ابن كثير على طائفة قليلة فروا من المعركة وجاؤوا إلى المدينة ، فاشتبه الأمر على بعض ا لمؤرخين فنسبوا هذه الأخبـار لعموم الجيش .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير شواهد على أن الفرار كان من فئة قليلة ، ومن ذلك ما أخرجه ابن إسحاق عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت لامرأة سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة : مالي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين ؟ قالت : والله ما يستطيع أن يخرج ، وكلما خرج صاح به الناس ، يافُرَّار فررتم في سبيل الله ، حتى قعد في بيته فما يخرج ، وقد ذكر هذا الخبر ابن إسحاق في أخبار غزوة

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٦٤ .

(٢) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٢٦٢ ، (٧/ ٥١٢) .

مؤتة [1] . وهؤلاء الذين يُشهِّرون بسلمة وأصحابه لم يعلموا بعذر النبي ﷺ لهم ، أو أنهم قالوه قبل العذر .

وكون هذا التشهير حصل لأفراد من الجيش دليل واضح على أن المراد هؤلاء النفر وليس عموم الجيش .

وقد جمع الحافظ ابن كثير بين القولين بقوله « ويمكن الجمع بين قول ابن إسحاق وبين قول الباقين ، وهو أن خالداً لما أخذ الراية حاشى بالقوم المسلمين حتى خلَّصهم من أيدي الكافرين من الروم والمستعربة ، فلما أصبح وحوَّل الجيش ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة ، كما ذكره الواقدي توهم الروم أن ذلك عن مدد جاء إلى المسلمين ، فلما حمل عليهم خالد هزموهم بإذن الله والله أعلم » [2] .

أما ما تشتمل عليه أخبار آخر المعركة من المواقف فإن خبر عطاف بن خالد الذي أخرجه الواقدي يبين براعة خالد بن الوليد الحربية حيث جعل مقدمته ساقته وساقته مقدمته وميمنته ميسرته وميسرته ميمنته ، فأوهم العدو أن المسلمين قد تلقَّوا مددا جديدا وأصبحت كل طائفة من الأعداء ترى وجوها غير الذي رأتها بالأمس ، وهذا مثل من أمثلة عبقريته القيادية ، فلقد كان خُطَّته هذه - بعد توفيق الله تعالى - أبعد الأثر في إثارة الرعب لدى الأعداء وإصابتهم بالفشل ، حتى وقع ما يشبه خوارق العادات من انتصار جيش صغير على جيش ضخم يفوقه في العدد بأكثر من ست وستين مرة .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٥١٥ - ٥١٦ .

البداية والنهاية ٤/ ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) البداية والنهاية ٤/ ٢٤٨ .

ولقد بذل خالد جهدا عظيما في تلك المعركة ، وقد صور هذا الجهد بقوله « لقد انقطعَتْ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وصبَرَتْ في يدي صفيحة لي يمانية » أخرجه الإمام البخاري (١) .

وهذا يدل على ضراوة هذه المعركة ، والجهد الكبير الذي بذله الصحابة رضي الله عنهم فيها .

وقد أثنى النبي ﷺ على خالد بقوله « حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » ، وهذا يدل على شجاعته الفائقة ، وإخلاصه التام وتجرده من حظ النفس رضي الله عنه .

* * *

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٢٦٥ (٧/ ٥١٥) .

٧ – موقف إداري لرسول الله ﷺ –

أخرج الإمام مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : قتل رجل من حمْيَر رجلا من العدو فأراد سَلَبه ، فمنعه خالد ابن الوليد رضي الله عنه ، وكان واليا عليهم ، فأتى رسولَ الله ﷺ عوفُ بن مالك فأخبره ، فقال لخالد : ما منعك أن تعطيه سلبه ؟ قال : استكثرته يارسول الله ، فقال : ادفعه إليه ، فمرَّ خالد بعوف فجرَّ رداءه ، ثم قال : هل أنجزت لك ماذكرت لك من رسول الله ﷺ ؟ فسمعه رسول الله ﷺ فاستُغْضب فقال : لا تعطه ياخالد ، لاتعطه ياخالد ، هل أنتم تاركون لي أمرائي ؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استُرعيَ إبلا أو غنما فرعاها ، ثم تحيَّن سقيها فأوردها حوضا فشرَبْت فيه ، فشربت صفْوه وتركت كدَره ، فَصَفْوُه لكم وكدره عليهم .

وفي رواية أخرى لمسلم من حديث عوف بن مالك قال : خرجت مع من خرج مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ، ورافقني مَددِيّ من اليمن ، قال : وساق الحديث عن النبي ﷺ بنحوه (١) .

فهذا موقف عظيم من رسول الله ﷺ في حماية القادة والأمراء من أن يتعرضوا للإهانة بسبب الأخطاء التي قد تقع منهم ، فهم بشر معرضون للخطأ ، فينبغي السعي في إصلاح خطئهم من غير تنقُّص ولاإهانة ، فخالد حينما منع ذلك المجاهد سلَبه لم يقصد الإساءة إليه ، وإنما اجتهد فغلَّب جانب المصلحة العامة ، حيث استكثر ذلك السلب على فرد واحد ، ورأى أنه إذا دخل في الغنيمة العامة نفع عدداً أكبر من

---

(١) صحيح مسلم ، رقم ١٧٥٣ ، كتاب الجهاد (ص ١٣٧٣) .

المجاهدين ، ولم يكن يعلم أن الحكم الشرعي في ذلك يقضي للقاتل بسلب المقتول وإن كان كبيراً .

وعوف بن مالك أدَّى مهمته في الإنكار على خالد ، ثم في رفع الأمر إلى رسول الله ﷺ حينما لم يقبل خالد قوله ، وكان المفترض أن تكون مهمته قد انتهت بذلك ، لأنه - والحال هذه - قد دخل في أمر من أمور الإصلاح ، وقد تم الإصلاح على يده ، ولكنه تجاوز هذه المهمة حيث حوَّل القضية من قضية إصلاحية إلى قضية شخصية ، فأظهر شيئًا من التشفِّي من خالد ، ولم يقرَّه النبي ﷺ على ذلك ، بل أنكر عليه إنكاراً شديداً وبيَّن حق الولاة على جنودهم .

وكون النبي ﷺ أمر خالداً بعدم رد السلَب على صاحبه لايعني أن حق ذلك المجاهد قد ضاع ، لأنه لايمكن أن يأخذ رسول الله ﷺ إنسانًا بجريرة غيره ، فلابد أن ذلك المجاهد قد حصل منه الرضى ، إما بتعويض عن ذلك السلب أو بتنازل منه أو غير ذلك فيما لم يذكر تفصيله في الخبر .

* * *

مواقف وعبر

في سرية ذات السلاسل

١ - مثل من إخلاص عمرو بن العاص -

أخرج الإمام ابن حبان من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ياعمرو اشدُد عليك سلاحك وثيابك، قال: ففعلت ثم أتيته فوجدته يتوضأ، فرفع رأسه فصعَّد فيَّ البصر وصوَّبه، ثم قال: ياعمرو إني أريد أن أبعثك وجهًا يسلِّمك الله ويغنِّمك، وأرغب لك في المال رغبة صالحة، قال قلت: يارسول الله لم أسلم رغبة في المال وإنما أسلمت رغبة في الجهاد والكينونة معك، قال: ياعمرو نعمًّا المال الصالح للرجل الصالح » (١).

فهذا موقف يذكر لعمرو بن العاص رضي الله عنه في الإخلاص لله جل وعلا ولرسوله ﷺ والإسلام، فقد كان النبي ﷺ يريد أن يتألَّفه ليزيد ثباته على الإسلام، فتبين من جوابه قوة إيمانه وصدق نيته، وقد أبان له النبي ﷺ أن المال الحلال نعمة إذا وقع بيد الرجل الصالح، لأنه يبتغي به وجه الله تعالى ويصرفه في وجوه الخير ويُعفُّ به نفسه وأسرته.

* * *

(١) موارد الظمآن رقم ٢٢٧٧ ص ٥٦٦ .

٢ - موقف أبي عبيدة مع عمرو بن العاص -

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى : وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل من أرض بني عذرة ، وكان من حديثه أن رسول الله ﷺ بعثه يستنفر الناس إلى الشام . وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بَليّ ، فبعثه رسول الله ﷺ إليهم يَستألفهم لذلك ، حتى إذا كان على ماء بأرض جُذَام ، يُقال له السلسل ، وبذلك سميت تلك الغزوة ، غزوة ذات السلاسل ، فلما كان عليه خاف فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمدُّه ، فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأوّلين ، فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : لاتختلفا .

فخرج أبو عُبيدة حتى إذا قَدم عليه ، قال له عمرو : إنما جئتَ مدداً لي ، قال أبو عُبيدة : لا ، ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه ، وكان أبو عبيدة رجلا لَيِّنًا سَهلاً ، هيِّنًا عليه أمر الدنيا فقال له عمرو : بل أنت مددٌ لي ، فقال أبو عُبيدة : ياعمرو ، إن رسول الله ﷺ قال لي : لاتختلفا ، وإنك إن عصيتني أطعتُك ، قال : فإني الأمير عليك ، وأنت مَدَدٌ لي ، قال : فدونك ، فصلى عمرو بالناس [1] .

وفي رواية موسى بن عقبة : « أن المحاورة كانت بين المهاجرين أصحاب أبي عبيدة وبين عمرو بن العاص » [2] وهذه الرواية أقرب وأشبه بأخلاق أبي عبيدة رضي الله عنهم جميعا .

في هذا الخبر مواقف منها :

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٩٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٥١٦ .

أولاً : في هذا الخبر مثل من الأخلاق الإسلامية التي كان يتحلى بها الصحابة رضي الله عنهم وذلك في إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة .

إن موقف أبي عبيدة مع عمرو بن العاص ليبين لنا سرّاً من أسرار انتصار المسلمين في عصرهم الأول حيث تجردوا من حظ النفس ونظروا إلى مصلحة الجماعة ، فلو أن أبا عبيدة تصرف تصرفا مضاداً فأصرَّ على التمسك بالإمرة وأصر عمرو على التمسك برأيه لحصل الشقاق والنزاع بين الطائفتين ، وهذا عامل خطير من عوامل الانهزام قبل الدخول في المعركة .

إن حب الرئاسة والإمرة أمر مركوز في بعض النفوس ، وإن مقدرة الإنسان على تحجيم نفسه وإيقافها عند حدود اعتبار المصلحة العامة وإن تعارضت مع المصلحة الخاصة . . إن ذلك أمر كبير يحتاج إلى قوة عالية من الإيمان ، وهذا ما حصل من أبي عبيدة رضي الله عنه .

ثانيًا : أمر آخر لابد من الإشارة إليه ، وهو الحكمة البالغة من وصية النبي ﷺ لأبي عبيدة بقوله حين وجَّهه « لاتختلفا » فقد كان يدرك أن مقام أبي عبيدة عند المسلمين أعلى من مقام عمرو بن العاص لسَبْق أبي عبيدة في الإسلام ودماثة خلقه التي تحبِّبه إلى الناس ، فكان يخشى أن يحمله أصحابه على التمسك برأيه ، كما أنه يخشى أن يتمسك عمرو برأيه فيحصل الخلاف ثم النزاع فقدَّم ﷺ حلا لمشكلة يتوقع حصولها فحصلت ونفع الله أبا عبيدة بهذه الوصية ، فكان فيها علاج هذه المشكلة، وهكذا تكون البراعة في القيادة وتدبير أمور الناس .

ومما يلاحظ في هذا الخبر أن عمرو بن العاص هو الذي صلى بالناس مع أنه حديث العهد بالإسلام ومعه في الجيش أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وغيرهم من السابقين في الإسلام ، وذلك لأنه كان هو أمير السرية ، وكذلك الحال في كل القيادات والولايات في الإسلام ، وإن في ذلك لَحكَمًا عظيمة من أبرزها ربط جميع أمور الدنيا بالدين ، وأن يكون لدى القادة والولاة إلمام بأحكام الدين وحفظ للقرآن بما يكفي للإمامة والخطابة ، وهذا يعني أن الكفاءة للولاية مرتبطة بالكفاءة في الإمامة .

* * *

٣ - خبر رافع الطائي مع أبي بكر -

قال ابن إسحاق : وكان من الحديث في هذه الغزاة : أن رافع بن أبي رافع الطائيَّ ، وهو رافع بن عميرة ، كان يحدّث - فيما بلغني - عن نفسه قال : كنت امرءًا نصرانيا ، وسُمِّيت سَرْجس . فكنت أدَلَّ الناس وأهداهم بهذا الرمل ، كنت أدفن الماء في بيض النعام بنواحي الرمل في الجاهلية ، ثم أغير على إبل الناس ، فإذا أدخلتها الرملَ غلبت عليها ، فلم يستطع أحد أن يطلبني فيه ، حتى أمرَّ بذلك الماء الذي خبأت في بيض النعام فأستخرجه ، فأشرب منه ، فلما أسلمت خرجت في تلك الغزوة التي بعث فيها رسولُ الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل .

قال : فقلت : والله لأختارنّ لنفسي صاحبا ، قال : فصحبت أبا بكر ، قال : فكنت معه في رحله ، قال : وكانت عليه عباءة له فدكية ، فكان إذا نزلنا بسطها ، وإذا ركبنا لبسها ثم شكها عليه بخلال له ، قال : وذلك الذي له يقول أهل نجد حين ارتدّوا كفَّارا : نحن نبايع ذا العباءة .

قال : فلما دنونا من المدينة قَافلينَ ، قال : قلت : يا أبا بكر ، إنما صحبتك لينفعني الله بك ، فانصحني وعلمني ، قال : لو لم تسألني ذلك لفعلت ، قال : آمرك أن توحد الله ولاتُشرك به شيئًا ، وأن تقيم الصلاة ، و أن تؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج هذا البيت ، وتغتسل من الجنابة ، ولاتتأمَّر على رجلين من المسلمين أبدا . قال : قلت : يا أبا بكر ، أما أنا والله فإني أرجو أن لا أشرك بالله أحدًا أبدا ، وأما الصلاة فلن أتركها أبدًا إن شاء الله ، وأما الزكاة فإن يك لي مال

أؤدها إن شاء الله ، وأما رمضان فلن أتركه أبدًا إن شاء الله ، وأما الحج فإن أستطع أحجّ إن شاء الله تعالى ، وأما الجنابة فسأغتسل منها إن شاء الله ، وأما الإمارة فإني رأيت الناس يا أبا بكر لا يَشرفُون ، عند رسول الله ﷺ وعند الناس إلا بها ، فَلِمَ تنهاني عَنها ؟

قال : إنك إنما استجهدتني لأجْهَدَ لك ، وسأخبرك عن ذلك : إن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بهذا الدين ، فجاهَدَ عليه حتى دخل الناس فيه طوعًا و كرهًا ، فلما دخلوا فيه كانوا عُوَّاذَ الله وجيرانه ، وفي ذمَّته ، فإياك لا تُخْفر الله في جيرانه ، فيتبعَك الله خفُرته[1]، فإن أحدكم يُخفر في جاره ، فَيظلّ ناتئا عَضله[2]، غضبا لجاره أن أصيبت له شاة أو بعير، فالله أشدَّ غضبا لجاره . قال : ففارقْته على ذلك .

قال : فلما قُبض رسول الله ﷺ ، وأُمِّر أبو بكر على الناس قال : قَدمت عليه ، فقلت له : يا أبا بكر ، ألم تك نهيتني عن أن أتأمر على رجلين من المسلمين ؟ قال : بلى ، وأنا الآن أنهاك عن ذلك ، قال : فقلت له فما حملك على أن تلي أمر الناس ؟ قال : لا أجد من ذلك بُدًا ، خشيت على أمَّة محمد ﷺ الفرقة[3] .

في هذا الخبر وصية نافعة من أبي بكر الصديق لرافع بن أبي رافع الطائي رضي الله عنهما ، وقد ذكر في هذه الوصية أركان الإسلام مع وضوحها أمام السائل وذلك لبيان أهميتها في الإسلام ، إذ أن البناء يقوم

---

(١) أي يجازيك على غدرك بذمته .

(٢) أي تبرز عضلاته من الغضب .

(٣) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٩١ - ٣٩٣ .

على الأركان فإذا وقع الخلل في الأركان سقط البناء ، والوصية بإقامة هذه الأركان لا تعني مجرد أدائها وإنما تعني إقامتها كاملة مع النية الخالصة وحضور القلب مع الله تعالى ، فإذا أقيمت كاملة كما شرعها الله جل وعلا فإنها تُقَوِّي الإيمان وتبعث على التقوى ويترتب عليها السلوك الإسلامي في كل شئون الحياة ، فلا غرابة في اشتمال وصية أبي بكر على العناية بهذه الأركان .

وإن أبرز ما لفت نظر رافع الطائي في هذه الوصية أن لا يتأمر على رجلين ، وقد ناقش أبا بكر في ذلك فأفاده بأن المسلمين جيران الله تعالى العائذون به ، وإن ارتكاب الوالي الظلم معهم والتقصير في حقوقهم يعتبر إخفاراً لذمة الله تعالى في عباده ، وإن كان إذا عدل فيهم وأوصل إليهم حقوقهم وأخلص النية حصل له الثواب على هذا العمل الصالح ، لكن أبا بكر قدَّم درء المفاسد على جلب المصالح ، وقد ائتمنه ذلك الرجل النصيحة فنصحه بما يراه الخير له في هذا الأمر .

* * *

٤ – خبر عوف بن مالك مع أبي بكر وعمر –

قال ابن إسحاق : أخبرني يزيد بن أبي حبيب أنه حُدِّث عن عوف بن مالك الأشجعي ، قال كنت في الغَزاة التي بعث فيها رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل ، قال فصَحبت أبا بكر وعمر ، فمررتُ بقَوم على جَزُور لهم قد نحروها ، وهم لا يقدرون على أن يُعضُّوها[١] ، قال : وكنت امْرأ لَبِقا جازرا ، قال : فقلت أتعطوني منها عشيرا على أن أقسمها بينكم : قالوا : نعم ، قال : فأخذت الشفرتين . فجزأتها مكاني . وأخذت منها جُزْءًا فحملته إلى أصحابي . فاطَّبخناه فأكلناه . فقال لي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : أنَّى لك هذا اللحم يا عوف ؟ قال : فأخبرتهما خبره . فقال : والله ما أحسنت حين أطعمتنا هذا . ثم قاما يتقيآن ما في بطونهما من ذلك .

قال : فلما قفل الناس من ذلك السفر ؛ كنت أوّل قادم على رسول الله ﷺ . قال : فجئته وهو يصلي في بيته . قال : فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . قال : أعوفُ بن مالك ؟ قال : قلت : نعم . بأبي أنت وأمي . قال : أصاحب الجَزور ؟ ولم يزدني رسول الله ﷺ على ذلك شيئا[٢] .

في هذا الخبر مواقف : منها ما كان من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من التحري الشديد عن خلو طعامهما من أي شبهة ، وهذا يعتبر قمة في السلوك الإسلامي المبني على التقوى والورع ، كما أنه يعتبر من

---

(١) أي يقتسمونها .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٩٣ - ٣٩٤ .

المؤهلات التي جعلت من أبي بكر وعمر قمة عالية في تاريخ الإسلام ، فإن السلوك اليومي للمسلم دليل على مقدار إيمانه بالله تعالى ، فإذا حماه إيمانه من الوقوع في المحارم فهذا دليل على قوة إيمانه ، وإذا تورع عن الشبهات فإن هذا دليل على رفعة درجته في الإيمان ، والإيمان مستقر في القلوب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، وإنما يتفاضل الناس في الحياة الدنيا بالعمل الصالح الذي يقاس به الإيمان .

* * *

٥ - موقف قائد السرية وأصحابه في جهاد الأعداء

وقد أخرج محمد بن عمر الواقدي هذا الخبر عن عدد من الرواة قالوا : بلغ رسول الله ﷺ أنّ جَمْعا من « بَلي وقضاعة » قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ . . . ثم ذكر الخبر بنحو رواية ابن إسحاق .

وقد أضاف الواقدي في روايته ما يوضح نتائج هذه السرية حيث يقول : فآب إلى عمرو جَمْعٌ - فصاروا خمسمائة - فسار الليل والنهار حتى وَطئ بلاد بَليٍّ ودَوَّخها . وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه كان بهذا الموضع جَمْعٌ فلمّا سمعوا به تفرّقوا . حتى انتهى إلى أقصى بلاد بَليٍّ وعُذرة وبَلقَيْن ، ولقي في آخر ذلك جَمْعًا ليس بالكثير ، فقاتلوا ساعةً وترامَوْا بالنَّبْل ، ورُمي يومئذ عامر بن ربيعة بسَهم فأصيب ذراعه . وحمل المسلمون عليهم فهربوا وأعجزوا هربًا في البلاد وتفرّقوا ودوّخ عمرو ما هناك وأقام أيامًا لايسمع لهم بجمع ولابمكان صاروا فيه[1] . وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنَّعَم ، وكانوا ينحرون ويذبحون ، لم يكن في ذلك أكثر من ذلك ، ولم تكن غنائم تُقسم إلا ماذُكر له[2] .

فهذا الخبر يبين ما جرى من عمرو بن العاص ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم في جهاد الأعداء ، ولقد كان من نتائج هذه السرية أن المسلمين بثوا الرعب في قبائل شمال بلاد العرب وحالوا بينهم وبين

---

(١) يعني إلا سار إليهم .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٧٧١ .

التجمع لغزو المسلمين ، كما أنهم سيحسبون حسابا كبيرا لغزو المسلمين بلادهم مرة أخرى فيما لو أظهروا شيئًا من العداء لدولة الإسلام .

* * *

مواقف وعبر

بين ذات السلاسل وفتح مكة

١ – مثل من الفدائية ونصر الله تعالى أولياءه –
(سرية ابن أبي حَدرد إلى رفاعة الجشمي)

قال ابن إسحاق : وغزوة ابن أبي حَدرد الأسلمي الغابة وكان من حديثها – فيما بلغني – عمن لا أتهم ، عن ابن أبي حدرد قال : تزوجت امرأة من قومي ، وأصْدَقْتها مئتي درهم ، قال : فجئت رسول الله ﷺ أستعينه على نكاحي ، فقال : وكم أصدقت : فقلت : مئتي درهم يارسول الله ، قال : سبحان الله ، لو كنتم تأخذون الدراهم من بطن واد ما زدتم ، والله ماعندي ما أُعينك به .

قال : فلبثت أياما ، وأقبل رجل من بني جُشم بن معاوية ، يقال له : رفاعة بن قيس ، أو قيس بن رفاعة ، في بطن عظيم من بني جشم ، حتى نزل بقومه ومن معه بالغابة ، يريد أن يجمع قيسًا على حرب رسول الله ﷺ ، كان ذا اسم في جُشم وشرف ، قال : فدعاني رسول الله ﷺ ورجلين معي من المسلمين ، فقال : أخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبر وعلم . قال : وقدّم لنا شارفا عجفاء [١] ، فحمل عليها أحدنا ، فو الله ما قامت به ضعفا حتى دَعَمها الرجال من خلفها بأيديهم ، حتى استقلت وماكادت ، ثم قال : تبلَّغوا عليها واعتقبوها .

قال : فخرجنا ومعنا سلاحنا من النبْل والسيوف ، حتى إذا جئنا قريبا من الحاضر [٢] عُشَيْشيةً مع غروب الشمس ، قال : كمنْت في ناحية ، وأمرت صاحبيّ فكَمنا في ناحية أخرى من حاضر القوم ، وقلت

---

(١) أي ناقة مسنة هزيلة .

(٢) أي مكان إقامة القوم .

لهما : إذا سمعتماني قد كبَّرت وشددت في ناحية العسكر فكبرا وشُدًّا معي .

قال : فو الله إنَّا لكذلك ننتظر غرَّة القوم ، أو أن نُصيب منهم شيئًا ، قال : وقد غشينا الليل حتى ذهبت فَحمة العشاء ، وقد كان لهم راع قد سرّح في ذلك البلد ، فأبطأ عليهم حتى تخوّفوا عليه . قال : فقام صاحبهم ذلك رفاعةُ بن قيس ، فأخذ سيفه ، فجعله في عنقه ، ثم قال : والله لأتبعنَّ أثر راعينا هذا ، ولقد أصابه شر ، فقال له نفر ممن معه : والله لاتذهب ، نحن نكفيك ، قال : والله لايذهب إلا أنا ، قالوا : فنحن معك قال : والله لايتبعني أحد منكم ، قال : وخرج حتى يمرَّ بي ، قال : فلما أمكنني نفحته بسهمي ، فوضعته في فؤاده ، قال : فو الله ماتكلم ، ووثبت إليه ، فاحتززت رأسه . قال : وشددت في ناحية العسكر ، وكبَّرت وشدّ صاحباي وكبَّرا قال : والله ما كان إلا النجاة ممن فيه : عندك عندك ، بكل ما قدروا عليه من نسائهم وأبنائهم ، وماخفَّ معهم من أموالهم ، قال : واستقنا إبلا عظيمة ، وغنما كثيرة ، فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ ، قال : وجئت برأسه أحمله معي ، قال : فأعانني رسولُ الله ﷺ من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيرا في صَداقي فجمعتُ إليَّ أهلي [١] .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولاً : موقف الرسول ﷺ من المغالاة في المهوَر ، حيث أنكر على من تجاوز حدَّ القصد والاعتدال في المهر ، وهذا دليل على أن المشروع

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٤٠٠ - ٤٠٢ .

في المهر هو التيسير والاقتصار على حد الكفاية ، مع أن هذا الصحابي الجليل لم يزد على مئتي درهم ، لكنها في ذلك العهد تعتبر مقداراً كبيراً بالنسبة لأوساط الناس ، فليت المسلمين اليوم يتعلمون من هذا الدرس النبوي الكريم ما يدفعهم إلى الاعتدال واجتناب المغالاة والتفاخر .

ثانيًا : في هذه القصة العجيبة عبرة ، حيث تغلب ثلاثة نفر على جيش كبير قد تجمَّع حول قائده ، وقَرُب من المدينة يريد أن يلتمس من المسلمين غرَّة فيغير عليهم فقضى الله أمره ورد كيده بهؤلاء الثلاثة .

إن هذه النتيجة الكبيرة تمت بتكاليف قليلة بالنسبة للمسلمين ، وهذا يدلنا أولاً على عناية الله تعالى بهذه الأمة الإسلامية ، فلقد هيأ سبحانه أسباب النصر لهؤلاء النفر . . من غياب راعي الكفار وتأخره حتى أظلم الليل ، وإصرار أمير القوم على أن يخرج هو لطلبه ، ثم إصراره على أن يخرج وحده ليموت بسهم مسدَّد من يد مسلم غامر بنفسه وبصاحبيه في ظلام ليل حالك وفي مواجهة عدو كبير متربص .

فلما تم تكبير المسلمين وهجومهم بعد غياب قائد الكفار أيقنوا بهلاكه ، ولم يكونوا يتوقعون أن المكبِّرين ثلاثة فقط ليس معهم جيش ، فأصيبوا بالرعب وكان همُّ كل واحد منهم أن ينجو بنفسه وأهله وماله ، ولم يفكروا بالمقاومة فذهبوا في الأرض فرارا ، وخلت دارهم لهؤلاء الثلاثة الذين ساقوا الغنائم إلى المدينة .

وإن من أهم عوامل نصر المسلمين إصابة الأعداء بالرعب القاتل ، الذي هو سلاحٌ مَنَّ الله به على هذه الأمه ، فلقد كان بإمكان هذا الجيش أن يصبر قليلا وأن يردَّ بالرماية على اتجاه عدوه ، ولكنهم لم يفكروا

بالمقاومة ، وإنما كان همهم مقصورا على النجاة بأنفسهم وماخفَّ من أموالهم لهيمنة الرعب على قلوبهم .

ثالثًا : مما ينبغي الإشارة إليه ما كان يتمتع به قائد المسلمين الثلاثة من براعة فائقة في الرمي حيث استطاع في ظلام دامس أن يصيب قلب ذلك الرجل الذي مات في الحال ، وهكذا يجب على أفراد الأمة الإسلامية أن يتمتعوا بمثل هذه المقدرة ليصونوا دينهم وأمتهم .

كما يلاحظ أن هذا القائد كان ماهرًا في التخطيط لتلك المعركة التي لم تكن متكافئة بأي ميزان ، وكان لمهارته وحسن تدبيره واغتنامه الفرص الأثر الواضح في نجاح تلك السرية .

* * *

٢ – مثل من المعاملة الكريمة في الدعوة –
(أسر ثمامة بن أثال وإسلامه)

أخرج الإمامان البخاري ومسلم – واللفظ له – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : بعث رسولُ الله ﷺ خيلا قبَل نجد . فجاءت برجل من بني حنيفة يُقال له : ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة . فربطوهُ بسارية من سواري المسجد[١] . فخرج إليه رسولُ الله ﷺ فقال « ماذا عندك ياثمامة ؟ » فقال : عندي ، يامحمد خيرٌ . إن تقتل تقتُل ذا دم . وإن تُنْعم تُنعم على شاكر . وإن كنت تُريد المال فسل تُعط منه ماشئت[٢] فتركه رسولُ الله ﷺ . حتى كان بعد الغد . فقال « ماعندك ياثمامة؟ » قال : ما قلت لك . إن تنعم تُنعم على شاكر . وإن تقتل تقتل ذا دم . وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فتركهُ رسولُ الله ﷺ حتى كان من الغد . فقال « ماذا عندك ياثمامة ؟ » فقال : عندي ماقلت لك . إن تنعم تُنعم على شاكر . وإن تقتُل تقتُل ذا دم . وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فقال رسول الله ﷺ : « أطلقوا ثمامة » فانطلق إلى نخل قريب من المسجد . فاغتسل . ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . يامحمد والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغض إليَّ من وجهك ، فقد أصبح وجهُك أحب الوجوه كلها إليَّ . والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك . فأصبح دينك أحب الدين

---

(١) في رواية ابن إسحاق أن النبي ﷺ قال : « أحسنوا إساره » .

(٢) في رواية ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « أسلم ياثمامة » .

كله إليَّ . والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك . فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَّ . وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العُمرة . فماذا ترى؟ فبشره رسولُ الله ﷺ . وأمرهُ أن يعتمر .

فلما قدم مكة قال له قائلٌ : أصَبَوت[1] ؟ فقال : لا . ولكني أسلمتُ مع رسول الله ﷺ . ولا والله لايأتيكم من اليمامة حبةُ حنطة حتى يأذن فيها رسولُ الله ﷺ [2][3] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : فيه مثل من منهج النبي ﷺ الدعوي ، فقد عامل ثمامة بن أثال معاملة كريمة وأمر الصحابة رضي الله عنهم بإكرامه مع ما سبق منه من عداء للمسلمين .

وقد أثَّرت هذه المعاملة الكريمة في نفس ثمامة حتى رغب في الإسلام ، وتغيرت الصورة القاتمة التي كان يحملها عن الإسلام والمسلمين إلى صورة مشرقة استنارت بها بصيرته فانجذب إلى الإسلام .

ثانيًا : موقف ثمامة في إعلان إسلامه والبيان الرائع الذي عرضه فيه ، من تجلية ألوان الغشاوة التي كانت مهيمنة على قلبه ، وكيف انجلت

---

(١) يعني أخَرجت من دينك .

(٢) جاء في رواية ابن هشام : ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئًا ، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ : إنك تأمر بصلة الرحم وإنك قد قطعت أرحامنا ، وقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل .

(٣) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٦٤ (ص ١٣٨٦) .

صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٧٢ (٨/ ٨٧) .

وأخرجه ابن إسحاق وفيه بعض الزيادات – سيرة ابن هشام –٤/ ٤١٤-٤١٧ – .

بنور الله تعالى إلى أضدادها ، فأصبحت أبغضُ الأشياء عنده أحبَّها إليه، وهكذا يبدأ المسلم بإعلان إسلامه تاريخًا جديدًا يمحو به آثار الجاهلية .

ثالثًا : ما قام به ثمامة من محاولة التضييق على أعداء الإسلام والمسلمين ، حيث هدد مشركي مكة بمنع بيع الحنطة لهم ، وكانت اليمامة آنذاك مَصْدراً مُهمّا لتصدير الطعام إلى مكة .

وكون ثمامة ربط السماح بتصدير الحنطة إليهم بإذن النبي ﷺ يعتبر إعزازاً منه للمسلمين وتقوية لموقفهم مع أعدائهم ، ولقد قام فعلا بتنفيذ هذا التهديد كما جاء في رواية ابن هشام المذكورة ، حتى اضطر كفار مكة إلى أن يخضعوا لرسول الله ﷺ فيكتبوا له كتابا يتوسلون إليه فيه بصلة الرحم أن يأذن بذلك .

وهكذا أشعر ثمامة المشركين بحاجتهم إلى رسول الله ﷺ ، وذلك مما يضعف من قوتهم ، وصمودهم على الوقوف في وجهه .

رابعًا : موقف ثمامة حينما أعلن إسلامه في مكة المكرمة وهي آنذاك تغلي بأهلها في عداوة الإسلام وأهله ، وفي هذا إعزاز للإسلام وتقوية للمسلمين ، وقد تعرض بسبب هذه الجرأة إلى الأذى من الكفار حتى قدموه ليضربوا عنقه ، ولم ينقذه منهم إلا تذكر أحدهم لمصالحهم الاقتصادية في بلاده .

وقد ثبت على إسلامه رضي الله عنه حينما ارتد قومه وتابعوا مسيلمة الكذاب ، وارتحل بمن أطاعه من قومه إلى البحرين فقاتل المرتدين مع العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه[1] .

* * *

---

(١) الإصابة ١/ ٢٠٤ رقم ٩٦١ .

٣ - إسلام أبي العاص بن الربيع -

قال ابن إسحاق : وأقام أبو العاص بمكة ، وأقامت زَيْنب عند رسول الله ﷺ بالمدينة ، حتى فرّق بينهما الإسلام ، حتى إذا كان قُبيل الفتح ، خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشام ، وكان رجلا مأمونا ، بمال له وأموال لرجال من قريش ، أبْضعوها معه ، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً ، لقيتْه سرية لرسول الله ﷺ (١) ، فأصابوا ما معه ، وأعجزهم هاربًا .

فلما قَدمت السرية بما أصابوا من ماله ، أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ ، فاستجار بها فأجارته ، وجاء في طلب ماله ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصُّبح - كما حدثني يزيد بن رومان - فكبر وكبر الناس معه ، صرخت زينب من صفة النساء : أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع ، قال : فلما سلم رسولُ الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعتُ ؟ قالوا : نعم ، قال : أما والذي نفسُ محمد بيده ماعلمتُ بشيء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم ، إنه يُجير على المسلمين أدناهم ، ثم انصرف رسولُ الله ﷺ ، فدخل على ابنته ، فقال : أي بُنية ، أكْرمي مثواه ، ولايخلُصنّ إليك ، فإنك لاتحلين له .

(١) لم يكن هناك سرايا ولاقتال بين المسلمين ومشركي مكة بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وإنما الذين أخذوا تجارة أبي العاص هم جماعة أبي بصير وأبي جندل التي مر ذكرها ، كما جاء في رواية البيهقي لخبر تلك الجماعة - دلائل النبوة ٤/ ١٧٤ - .

ويفهم من هذا الخبر أن هجومهم على تلك القافلة كان في آخر مقامهم في « العيص » حيث قدموا إلى المدينة بأمر النبي ﷺ لما طلبت قريش ذلك ، فكان هذا الحوار معهم حول ردّ ما أخذوه من أبي العاص بن الربيع .

قال ابن إسحاق : وحدّثني عبدُ الله بن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص ، فقال لهم : إن هذا الرجل منّا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تُحسنوا وتردّوا عليه الذي له ، فإنّا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحقّ به ، فقالوا : يارسول الله ، بل نردّه عليه ، فردّوه عليه، حتى إن الرجل ليأتي بالدّلْو ويأتي الرجل بالشنّة وبالإداوة[1] ، حتى إن أحدهم ليأتي بالشِّظاظ [2] ، حتى ردوا عليه ماله بأسره ، لايفقد منه شيئًا .

ثم احتمل إلى مكة ، فأدّى إلى كل ذي مال من قُريش ماله ، ومن كان أبضع معه ، ثم قال : يامعشر قُريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا : فلا فجزاك الله خيرًا ! فقد وجدناك وفيًا كريمًا ، قال : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما مَنعني من الإسلام عنده إلا تخوُّف أن تظنّوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أدّاها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمت . ثم خرج حتى قَدم على رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : وحدثني داود بن الحُصين عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : ردّ عليه رسولُ الله ﷺ زينب على النكاح الأول لم يُحدث شيئًا بعد ست سنين .

قال ابن هشام : وحدّثني أبو عُبيدة أنّ أبا العاص بن الرَّبيع لمّا قدم من

---

(١) الشنة والشن بفتح الشين القربة القديمة ، والإداوة بكسر الهمزة الإناء الذي يتوضأ به .

(٢) الشظاظ بوزن كتاب عود يشد به فم الغرارة .

الشام ومعه أموال المشركين قيل له : هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين ؟ فقال أبو العاص : بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي [1] .

وأخرج هذا الخبر الحاكم من خبر محمد بن إسحاق ولم يحكم عليه [2] .

في هذا الخبر مواقف :

أولاً : اهتمام النبي ﷺ بدعوة الرجال الذين يرى لهم من مكارم الأخلاق ما يؤهلهم للدخول في الإسلام ، ومن ذلك اهتمامه بأبي العاص بن الربيع ، وكانت دعوته إياه إلى الإسلام عن طريق المعاملة الكريمة حيث تشفَّع له عند أولئك المرابطين الذين استولوا على جميع مامعه من تجارة ، وهم جماعة أبي بصير .

وهذه المعاملة الكريمة من رسول الله ﷺ لأبي العاص كان لها أبلغ الأثر في انجذابه إلى الإسلام .

ثانيًا : في هذا الخبر دليل على قوة إيمان أبي بصير وأبي جندل ومن معهما من المسلمين المرابطين في « العيص » وتجردهم من الهوى حيث قبلوا وساطة النبي ﷺ لأبي العاص فردوا عليه كل ما أخذوا منه من غير تلكؤ ولاتردد ، ولاشك أن الذين أظهروا الإسلام أمام عتاة الكفار وتحملوا قيودهم وتعذيبهم من أجل الله تعالى لن يغريهم بريق الدنيا وإن قوي لَمعَانه ، وما خرجوا من مكة ليجعلوا من أنفسهم عصابة هدفها

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٥٣ - ٣٥٦ .

(٢) المستدرك ٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧ .

الاستيلاء على أموال الناس ، وإنما اضطروا إلى اعتراض تجارة قريش ليتخذوا من ذلك وسيلة للضغط عليها كي تتنازل عن شرطها الجائر بلزوم رد كل من خرج منهم إلى المسلمين وإن كان مسلما .

ثالثًا : ظهر في هذا الخبر نماذج من مكارم الأخلاق التي كان يتمتع بها أبو العاص بن الربيع ، فمن ذلك أنه قام برد الأمانات التي تحملها لقريش مع أنه كان يريد مفارقتهم ، وكان معتزاً بالإسلام مدركا أنه دين مكارم الأخلاق والمعاملة الحسنة ، فلذلك لما قيل له : هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين ؟ قال : بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي .

* * *

مواقف وعبر

فى فتح مكة

١ - سبب مسير الجيش الإسلامي إلى مكة -

ذكر الإمام محمد بن إسحاق خبر ذلك حيث قال : حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما حدثاه جميعًا قالا : كان في صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل ، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل ، فتواثبت خزاعة وقالوا : نحن ندخل في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنوبكر وقالوا : نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم .

فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهرًا ، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلا بماء يقال له الوتير ، وهو قريب من مكة ، وقالت قريش : ما يعلم بنا محمد وهذا الليل ومايرانا من أحد ، فأعانوهم عليهم بالكراع (١) والسلاح ، وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ (٢) .

* * *

---

(١) أي الخيل .

(٢) سيرة ابن كثير ٣/ ٥٢٦ ، وانظر سيرة ابن هشام ٤/ ٣ .

٢ - وفد خزاعة إلى النبي ﷺ -

اخرج ابن إسحاق بإسناده السابق من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قالا : وإن عمرو بن سالم ركب عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتى قدم على رسول الله ﷺ يخبر الخبر وقد قال أبياتَ شعر ، فلما قدم على رسول الله ﷺ أنشدها إياه :

يارب إنِّي ناشدٌ محمدًا ... حلفَ أبينا وأبيه الأتْلَدَا (١)

قد كُنْتُمُ وُلْدًا وكنّا والدا ... ثَمَّتَ أسلمنا ولم نَنْزِع يَدَا

فانصر رسولَ الله نصرا أيِّدا(٢) ... وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا ... إنْ سيمَ خسفًا وجهه تربَّدا

في فيلق كالبحر يجري مزبدا ... إنَّ قريشا أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في كداء رصدا (٣)

وزعموا أن لست أدعو أحدا ... فهم أذل وأقل عددا

هم بيَّتونا بالوتير هُجَّدا ... وقتلونا ركَّعًا وسجَّدا

فقال رسول الله ﷺ : « نصرتَ ياعمرو بن سالم » ، فما برح حتى مرَّت بنا عَنانة (٤) في السماء فقال رسول الله ﷺ « إن هذه السحابة لتستهلُّ بنصر بني كعب » (٥) .

وأخرجه الواقدي من حديث حزام بن هشام بن خالد الكعبي عن

---

(١) أي قديم .

(٢) أي قويا .

(٣) كداء جبل بأعلى مكة .

(٤) أي سحابة .

(٥) سيرة ابن كثير ٣/ ٥٢٦ - ٥٢٧ ، وانظر سيرة ابن هشام ٤/ ١١ .

أبيه وذكر نحوه ، ثم قال : وحدثني عبد الحميد بن جعفر بن عمران بن أبي أنس ؛ عن ابن عبّاس رضي الله عنه . قال : قام رسول الله ﷺ وهو يَجُرُّ طرَف ردائه ، لا نُصرتُ إن لم أنْصُر بني كعب ممّا أنْصُر منه نفسي !

وحدثني حزام بن هشام عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : لكأنكم بأبي سفيان قد جاءَ يقول : « جدّد العهد وزدْ في الهُدنة وهو راجعٌ بسخطه» ثم قال رسول الله ﷺ لعمرو بن سالم وأصحابه : ارجعوا وتفرّقوا في الأودية ! وقام رسول الله ﷺ فدخل على عائشة وهو مُغضب . فدعا بماء فدخل يغتسل . قالت عائشة : فأسمعه يقول وهو يصبّ الماءَ عليه : لانُصرتُ إن لم أنْصُر بني كعب [1] .

في هذا الخبر موقف عظيم لرسول الله ﷺ في نصر المسلمين المستضعفين من أعدائهم ، فقد وعد هؤلاء المسلمين من خزاعة المستنصرين به بنصرهم وقومهم على أعدائهم من بني بكر وقريش الذين اعتدوا عليهم ، وصدق رسول الله ﷺ في وعده كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وإن للمسلمين جميعا في رسول الله ﷺ لأسوة حسنة في هذا الموقف العظيم ، فإن من واجب كل مسلم أن يهُبَّ في نصرة إخوانه المسلمين في كل مكان على قدر استطاعته ، وليس من الإسلام في شيء أن تُنْتَزع بلاد المسلمين بلدًا تلو الآخر ولايهتم بذلك إلا أهل البلد المنكوب ، لأن ذلك يتنافى مع واجبات الأخوة الإسلامية ، ولو وعى المسلمون سنة نبيهم ﷺ وطبقوها لبقيت لهم مكانتهم العالية ودام عزهم في الأرض .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٨٩ - ٧٩١ ، وانظر سيرة ابن هشام ٤/ ١٣ .

٣ - إيذان قريش بالحرب -

أخرج مسدد بإسناده من حديث محمد بن عباد بن جعفر قال : بعث رسول الله ﷺ إلى قريش : « أما بعد فإنكم إن تبرؤوا من حلف بني بكر، أو تدُوا خزاعة [١] ، وإلا أوذنكم بحرب » فقال قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف صهر معاوية : إن بني بكر قوم مشائيم ، فلا ندى ماقتلوا ، أن لا يبقى لنا سبد ، ولا لَبَد [٢] ، ولا نبرأ من حلفهم فلم يبق على ديننا أحد غيرهم ، ولكن نؤذنه بحرب .

ذكره الحافظ ابن حجر وقال : هذا مرسل صحيح الإسناد [٣] .

وفي هذا دليل على أن رسول الله ﷺ لم يفاجئ قريشا بالحرب وإنما خيَّرهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب .

* * *

---

(١) أي تدفعوا دية قتلاهم .

(٢) السَّبَد الشعر واللَّبَد الصوف ، يعني إن فعلنا ذلك لم يبق لنا شيء .

(٣) المطالب العالية ٤/ ٢٤٣ رقم ٤٣٦١ .

٤ – موقف جهادي لحسان بن ثابت –

ولما نقضت قريش الصلح وكان الإيذان بالحرب من رسول الله ﷺ قال حسان بن ثابت رضي الله عنه قصيدته الدالية العصماء في تبكيت الكفار ووعيدهم ، وقد ذكرها ابن إسحاق رحمه الله تعالى ، ومنها قوله :

عدمْنا خَيلنا إن لم تروها	تُثير النقع موْعدُها كداَء[1]
يُنازعن الأعنَّة مُصغيات	على أكتافها الأسَلُ الظماءُ[2]
تظلُّ جيادُنا مُتمَطِّرات	تُلطِّمُهنَّ بالخُمُر النساءُ[3]
فإمَّا تُعرضوا عنَّا اعتمرنا	وكان الفتحُ ، وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم	يُعين اللهُ فيه من يشاء
وجبريلٌ رسولُ الله فينا	ورُوح القدْس ليس له كفاءُ
وقال الله : قد أرسلتُ عبداً	يقولُ الحق إن نفع البلاءُ
شهدتُ به فقوموا صدِّقوهُ	فقلتمْ : لا نقوم ولا نشاءُ
وقال الله : قد سَيَّرْتُ جُنداً	همُ الأنصارُ عُرْضتها اللقاءُ
لنا في كل يوم من مَعَدّ	سباب أو قتالٌ أو هجاء

(١) قوله (عدمنا خيلنا) جملة دعائية أي فقدناها ولاركبناها ، وتثير النقع أي تهيج الغبار ، وكداء بفتح الكاف ممدوداً هي الثنية العليا بمكة مما يلي المقابر وتسمى المَعْلَى .

(٢) ينازعن الأعنة أي يجاذبن اللُّجم إذا أُريد كفهن عن الجري ، ومصغيات أي مستمعات مصيخات ، والأسل بفتحتين الرماح ، والظماء العطاش .

(٣) متمطرات أي متسابقة مسرعة ، وتلطمهن أي تضرب خدودهن ، والخمر جمع خمار وهو ماتغطى به المرأة رأسها .

فَنُحكمُ بالقوافي مَن هجانا | ونضرب حين تختلطُ الدِّماءُ
ألا أبْلغ أبا سفيانَ عني | مُغَلغَلةً فقد برحَ الخَفاءُ[1]
بأن سُيوفنا تركَتكَ عَبداً | وعبدُ الدَّار سادَتْها الإماءُ
هَجَوتَ محمداً ، وأجبتُ عنهُ | وعند الله في ذاك الجزَاءُ
أتهجُوه ولستَ لهُ بكفء | فشرُّكما لخيركما الفداءُ
هَجوتَ مُباركا برّاً حنيفا | أمينَ الله شيمته الوَفاء
أمَنْ يهجو رسولَ الله منكم | ويمدحه وينصرهُ سواء؟
فإن أبي ووالده وعرضي | لعرض محمَّد منكم وقاءُ
لساني صارمٌ لاعيبَ فيه | وبحري لاتكدِّره الدِّلاء[2]

وقد روى الإمام مسلم أبياتا من هذه القصيدة من حديث عائشة رضي الله عنها ، وقد جاء في هذه الرواية : قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان : « إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله » ، وقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : هجاهم حسان فشفَى واشتفى »[3] .

فهذه القصيدة قد حازت على إعجاب النبي ﷺ لجزالة ألفاظها

---

(١) المغلغلة الرسالة تنقل من بلد إلى بلد وبرح الخفاء أي ظهر ما كان خافيًا وأبو سفيان هو ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٥٧ / ٥٩ .

(٣) صحيح مسلم ، فضائل الصحابة ، رقم ٢٤٩٠ (ص ١٩٣٥) .

وجودة معانيها ، ولما يعلمه ﷺ من الأثر القوي للشعر عند العرب ولذلك أمر شعراء الصحابة بهجاء المشركين كما جاء في حديث عائشة المذكور : أن رسول الله ﷺ قال : اهجوا قريشا فإنه أشدّ عليها من رشق النَّبل » .

ومن شدة إعجاب النبي ﷺ بهذه القصيدة أمر أن تدخل الخيل يوم الفتح من « كداء » حيث قال حسان (١) .

وحينما رأى النساء يومئذ يلطِّمن الخيل بالخُمُر تبسم إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وذكر بيت حسان بن ثابت ، فأنشده أبو بكر رضي الله عنه :

تظلُّ جيادنا متمطِّرات … تُلطِّمهن بالخُمُر النساء (٢)

وإن في موقف حسان هذا رضي الله عنه لمثلاً عاليا للجهاد باللسان والقلم ، الذي قد يفوق أثره على الأعداء أحيانا الجهاد بالسنان لما له من الأثر البالغ في تخذيل الأعداء وتثبيط هممهم ، ودفع المسلمين إلى الجهاد وتقوية عزائمهم .

* * *

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٥٩ ، مغازي الواقدي ٢/ ٨٣١ .

٥ – سفارة أبي سفيان ومواقف للصحابة –

قال ابن إسحاق : ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخل على ابنته أمّ حبيبة بنت أبي سفيان ، فلما ذهب ليجلس علَى فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يابُنيّة ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مُشرك نجس ، ولم أحبّ أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ ، قال : والله لقد أصابك يابنية بعدي شرّ .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ ، فكلمه ، فلم يردّ عليه شيئًا ، ثم ذهب إلى أبي بكر ، فكلّمه أن يُكلم له رسول الله ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فو الله لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتكم به ، ثم خرج فدخل على عليّ بن أبي طالب رضوانُ الله عليه ، وعنده فاطمة بنتُ رسول الله ﷺ ورضي عنها ، وعندها حسنُ بن عليّ ، غُلامٌ يدبّ بين يديها ، فقال : ياعليّ إنك أمسّ القوم بي رحما وإني قد جئت في حاجة ، فلا أرجعنّ كما جئت خائبا ، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر مانستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : يابنت محمد هل لك أن تأمري بُنيَّك هذا فيُجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قلت : والله مابلغ بنيَّ ذاك أن يُجير بين الناس ، وما يُجير أحدٌ على رسول الله ﷺ ، قال : يا أبا الحسن ، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ ، فانصحني ، قال : والله ما أعلم لك شيئًا يغني عنك شيئا ، ولكنك سيِّد

بني كنانة، فقُم فأجْر بين الناس ، ثم الحق بأرضك ، قال : أوَترى ذلك مُغنيًا عني شيئًا ؟ قال . لا والله ، ما أظنه ، ولكني لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان في المسجد ، فقال : أيها الناس ، إني قد أجرتُ بين الناس، ثم ركب بعيره فانطلق ، فلما قدم على قريش، قالوا : ماوراءك؟ قال : جئتُ محمدًا فكلمته ، فو الله لم يردَّ عليَّ شيئًا، ثم جئت ابن أبي قُحافة ، فلم أجد فيه خيرًا ثم جئت ابن الخطاب ، فوجدته أدنى العدو[1] ثم جئت عليًا فوجدته ألين القوم ، وقد أشار عليّ بشيء صنعته، فو الله ما أدري هل يغني ذلك شيئًا أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمد؟ قال : لا ، قالوا : ويلك ! والله إن زاد الرجلُ على أن لعب بك، فما يُغني عنك ما قلت . قال : لا والله ما وجدت غير ذلك[2] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : موقف أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما، وذلك حينما طوت فراش النبي ﷺ عن أبيها حينما كان مشركا ، وهذا مثل مما كان يتصف به الصحابة رضي الله عنهم من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء والبراء وإعزاز الإسلام والمسلمين .

وقولها لأبيها « أنت رجل مشرك نجس » لا تعني بذلك النجاسة الحسية، فإن المشركين كانوا يَفدُون على رسول الله ﷺ ويجلسهم أحيانا

---

(١) قال ابن هشام : أعدى العدو .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ١٤ - ١٦ .

على فراشه ، وإنما تعني النجاسة المعنوية ، وقد أرادت بذلك أن تُبرز عزَّة النبي ﷺ والإسلام ، وأن الكافر محتقر مهان وإن كان زعيم قريش، وكونها خاطبت أبا سفيان بذلك مع كونه أباها ومع مكانته العالية في قومه وعند العرب دليل على قوة إيمانها ورسوخ يقينها .

لقد كان في سلوك أم حبيبة مظهر من اجتهاد الصحابة البالغ في إظهار صفتهم الدينية ، ومحاولة إبراز معالم التميز على الكافرين، وهذا أمر له أهميته البالغة في المحافظة على شخصية المسلم ودفع معنويته إلى النماء والحيوية .

فأم حبيبة لاشك أنها تحب أباها حبا كبيرا من واقع حب الوالدين، وتقدر مكانته في قومه حيث كان سيد قريش ولكنها آثرت إبراز مكانة النبي ﷺ وتضخيم شأنه في عين أبي سفيان ، حتى في هذه القضية الصغيرة انطلاقا من المفهوم الإسلامي السائد بين الصحابة الذي يقضي برفع شأن المسلم مهما كانت منزلته الاجتماعية وخفض شأن الكافر وإن كان عظيما في قومه أو ذا قرابة .

ثانيًا : موقف الصحابة الذين كلمهم أبو سفيان ليشفعوا لقومه عند النبي ﷺ وهم أبو بكر وعمر وعلي وفاطمة رضي الله عنهم، حيث لم يتقدم منهم أحد بتحقيق هذا الطلب الذي يعتبر تجاوزا للحدود وتقدُّمًا على النبي ﷺ في خلاف ما عزم عليه ، وهذا يعتبر من كمال ورعهم وحسن أدبهم .

* * *

٦ – أمر النبي ﷺ بالتجهز –

أخرج الواقدي من طريق الزهري عن محمد بن جبير بن مُطْعم ، قال : لمّا ولّى أبو سفيان راجعًا قال رسول الله ﷺ لعائشة : جهِّزينا وأخفي أمْرَك ، وقال رسول الله ﷺ : اللّهمَّ خُذْ على قريش الأخبار والعيون حتى نأتيهم بَغْتَةً ، ويقال قال : اللّهمّ خُذْ على قريش أبصارهم فلا يروني إلا بغتة ، ولا يسمعون بي إلا فجأة . قالوا : وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب ، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قَيِّمًا بهم فيقول : لا تَدَعوا أحدًا يمرّ بكم تُنكرونه إلا رددتُموه – وكانت الأنقاب مُسلمة – إلا من سلك إلى مكة فإنه يُتحفّظ به ويسأل عنه، أو ناحية مكة .

قالوا فدخل أبو بكر على عائشة وهي تُجهِّز رسول الله ﷺ ، تعمل قمحًا سَويقًا ودَقيقًا وتمرًا ، فدخل عليها أبو بكر فقال : يا عائشة أهمَّ رسول الله ﷺ بغزو ؟ قالت : ما أدري ، قال : إن كان رسول الله همّ بسفر فآذنينا نتهيّأ له ، قالت ما أدري لعلّه يريد بني سُلَيم ، لعلّه يُريد ثَقيفًا ، لعلّه يُريد هَوازن ! فاستعجمتْ عليه حتى دخل رسول الله ﷺ فقال له أبو بكر : يا رسول الله ، أردتَ سفرًا ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم. قال : أفأتجهّزُ ؟ قال : نعم . قال أبو بكر : وأين تريد يا رسول الله؟ قال : قريشًا ، وأخْفِ ذلك يا أبا بكر . وأمر رسول الله ﷺ بالجَهاز ، قال : أوليس بيننا وبينهم مُدَّةٌ ؟ قال : إنهم غَدَروا ونَقَضوا العهد ، فأنا غازيهم ، وقال لأبي بكر : اطو ما ذكرتُ لك ، فظانٌّ يظن أنَّ رسول الله ﷺ يريد الشام ، وظانٌّ يظنّ ثَقيفًا ، وظانٌّ يظنّ هَوازن .

وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربْعيّ في ثمانية نَفَر إلى بطن إضَم[1] ليظنَّ ظانٌّ أنَّ رسول الله ﷺ توجَّه إلى تلك الناحيةَ ، ولأنْ تَذهب بذَلك الأخبار . [2]

في هذا الخبر مواقف منها :

أولاً : التزام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالسرِّيَّة التامة وثباتها على ذلك حتى أمام أبيها أبي بكر رضي الله عنه لقول النبي ﷺ لها «وأخفي أمرك» ، مع أن أباها هو الرجل الثاني في الإسلام ، وهي تعلم أن رسول الله ﷺ لا يخفي عنه شيئًا من أمور الأعداء ، ولكنه حينما أمرها بالإخفاء لم يستثن أباها فالتزمت بالسرية حتى معه .

ثانيا : الاهتمام الكبير من رسول الله ﷺ بتحقيق المقصود من سرِّية هذا الأمر وهو عزمه على غزو أهل مكة حيث دعا الله تعالى أن يأخذ على قريش الأخبار والعيون ، ولا شك أن دعاء الله تعالى هو أهم الأسباب الموصلة إلى تحقيق المقصود ، ولذلك بدأ به النبي ﷺ وقدّمه على غيره .

ثم أمر النبي ﷺ مجموعة من المسلمين بأن يأخذوا بمخارج المدينة فلا يَدَعوا أحدًا يمر بهم خاصة ما كان جهة مكة وأمَّر عليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان يدور عليهم ويراقب عملهم .

ثم أن النبي ﷺ من باب الاحتياط للأمر أرسل سرية إلى « إضم » في

---

(١) إضم ماء يطؤه الطريق بين مكة والمدينة عند السمينة (معجم البلدان ١/ ٢٨١) .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٧٩٦ .

طريق مكة ، لتذهب الأخبار بذلك ويتحدث الناس بأنه يريد القبائل التي بين مكة والمدينة .

وهذه دروس بالغة في إتقان السِّرِّيَة في الأمور المهمة وأخْذ الحيطة والحذر حتى يكون أدعى لنجاح المقاصد .

* * *

٧ – موقف تربوي للنبي ﷺ –
(خبر حاطب بن أبي بلتعة)

أخرج الإمام البخاري من حديث علي رضي الله عنه قال : « بعثني رسولُ الله ﷺ وأبا مرثد والزبير – وكلنا فارسٌ – قال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأةً من المشركين معها كتابٌ من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين . فأدركناها تسيرُ على بعير لها حيثُ قال رسول الله ﷺ . فقلنا : الكتاب فقالت : مامعنا كتاب ، فانخناها ، فالتمسنا فلم نر كتابا ، فقلنا : ماكذب رسولُ الله ﷺ ، لتُخرجنَّ الكتاب أو لنجرّدَنَّك . فلما رأت الجدَّ أهوَت إلى حُجزَتها – وهي محتجزة بكساء – فأخرجته . فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ .

فقال عمر : يارسول الله ، قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه ، فقال النبي ﷺ : ماحَملَك على ما صنعت ؟ قال حاطب : والله ما بي أن لا أكون مؤمنا بالله ورسوله ﷺ ، أردتُ أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي ، وليس أحدٌ من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله ، فقال النبي ﷺ ، صدق ، ولاتقولوا له إلا خيرا . فقال عمر : إنه قد خان الله والمؤمنين ، فدعني فلأضرب عنقه . فقال : أليس من أهل بدر ؟ فقال : لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد وجبت لكمُ الجنة – أو فقد غفرتُ لكم – فدمعت عينا عمر وقال : اللهُ ورسوله أعلم »(١) .

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٣٩٨٣ (٧/ ٣٠٤) .

في هذا الخبر مثل عظيم في التسامح مع أهل الفضل والتقدم في الإسلام ، والغضِّ عن سيئاتهم وإن كانت كبيرة .

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه من شدة حماسه الديني وغيرته على الإسلام وحياطته لدولته بادر إلى الإنكار الشديد على حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه ، ووصفه بالخيانة ، وطلب من رسول الله ﷺ أن يأذن له بقتله ، ولكن النبي ﷺ المربي الكبير ، الرحيم بالمؤمنين لم ينظر إلى حاطب من زاوية مخالفته تلك فحسب وإن كانت كبيرة ، وإنما راجع رصيده الماضي في الجهاد في سبيل الله تعالى وإعزاز الإسلام ، فوجد أنه قد شهد معركة بدر ، ولم يشهد بدراً إلا مؤمن صادق قوي الإيمان ، لأن الإقدام على معركة بدر كان إقداما على الموت المرجح ، ولا يصل إلى المغامرة بالأنفس إلا من ارتفع رصيده الإيماني إلى الحد الذي يجسِّم أمام ناظريه الهدف الأعلى للمسلم ، ألا وهو بلوغ رضوان الله تعالى والجنة وإن كان في ذلك ذهاب النفوس والأموال .

وفي هذا توجيه للمسلمين إلى أن ينظروا إلى أصحاب الأخطاء نظرة متكاملة ، وذلك بأن ينظروا فيما قدموه لأمتهم من أعمال صالحة في مجال التعليم والإفتاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى ، فإن الذي يُسهم في إسقاط فروض الكفاية عن الأمة يستحق التقدير والاحترام ، وإن بدرت منه بعض الأخطاء .

هذا فيما إذا كان ما صدر من هؤلاء خطأ محض وزلة قدم ، فكيف إذا كان ما صدر منهم رأيٌ علمي ناتج عن الاجتهاد وهم من أهل ذلك؟! .

إن بعض طلاب العلم في عصرنا هذا يتعجلون في نقد العلماء والدعاة لمجرد وقوعهم في آراء اجتهادية يرى بعض العلماء أنهم اخطئوا فيها ، وقد يصل النقد إلى حد السخرية وانتهاك الأعراض ، مُغْفلين تماما رصيدهم الماضي في الدعوة والجهاد وإنكار المنكر وتعليم العلم ، وترى هؤلاء الطلاب يُجَسِّمون أخطاء هؤلاء الكبار ويبرزونها بشكل يوحي للسامعين والقراء أن أولئك الذين تعرَّض إنتاجهم للنقد ليس لهم أي رصيد في خدمة الإسلام والمسلمين .

والمفترض في هذا المجال أن تُذكر حسنات هؤلاء أولاً ويعرِّف المسلمون بجهادهم وبلائهم في الإسلام وجهودهم في مجال العلم والدعوة ، ثم تذكر الأمور التي يراها المنتقدون أخطاء ومايرونه من الصواب في ذلك مع لزوم الأدب في النقد العلمي ، والبعد عن أسلوب السخرية والتنقيص .

هذا شيء مما يوحيه لنا سلوك النبي ﷺ في مواجهة هذا الخطأ الكبير الذي ارتكبه حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه .

إن رصيد حاطب الكبير في الجهاد في سبيل الله كان حائلا دون إدانته وإجراء العقوبة عليه ، بل كان حاميا له مما هو دون ذلك حيث لم يُسمع من مسلم كلمة واحدة في نقده والإساءة إليه بعد قول النبي ﷺ «ولا تقولوا له إلا خيرا» .

وأخيرا موقف جليل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي تحوَّل في لحظات من رجل غاضب ينادي بإجراء العقوبة الكبيرة على حاطب إلى رجل يبكي من الخشية والتأثر ويقول : الله ورسوله أعلم ، ذلك لأن

غضبه كان لله تعالى ولرسوله ﷺ فلما تبين له أن الذي يُرضي الله تعالى ورسوله ﷺ هو غضُّ النظر عن ذلك الخطأ ومعاملة صاحبه بالحسنى تقديراً لرصيده في الجهاد . . لما تبيَّن له ذلك استسلم لهذا الأمر وحوَّل غضبه إلى رضى ظهرت آثاره بقطرات من الدمع الغالي الذي يشف عن كمال الرقة والرحمة بالرغم من كمال القوة والصلابة فيمن صدر منه، وهذا دليل على التوحيد الخالص والإيمان الراسخ .

* * *

٨ - موقف لرسول الله ﷺ ولأبي بكر -

قال الواقدي : وحدثني قُران بن محمد ، عن عيسى بن عُمَيْلة الفَزاري ، قال : كان عُيَيْنَة[1] في أهله بنجد فأتاه الخبر أن رسول الله ﷺ يُريد وجهًا ، وقد تجمعت العرب إليه ، فخرج في نَفَر من قومه حتى قدم المدينة ، فيجد رسول الله ﷺ قد خرج قبله بيومين ، فسلك عن ركوبة فسبق إلى العَرْج[2] ، فوجده رسولُ الله ﷺ بالعرج ، فلما نزل رسول الله ﷺ العرج أتاه فقال : يارسول الله ، بلغني خروجك ومن يجتمع إليك فأقبلت سريعًا ولم أشعر فأجمع قومي فيكون لنا جَلَبة كثيرة ، ولستُ أرى هيأة حرب ، لا أرى ألويةً ولا رايات ! فالعمرة تُريد؟ فلا أرى هيأة الإحرام ! فأين وجهك يارسول الله ؟ قال : حيث شاء الله . وذهب وسار معه .

ووجد الأقرع بن حابس بالسُّقْيا ، قد وافاها في عشرة نَفَر من قومه ، فساروا معه ، فلما نزل قُدَيد عقد الألْوية وجعل الرايات . فلما رأى عُيينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عض على أنامله ، فقال أبو بكر : علامَ تندم ؟ قال : على قومي ألا يكونوا نفروا مع محمد ، فأين يُريد محمد يا أبا بكر ؟ قال : حيث يشاءُ الله . فدخل رسول الله ﷺ يومئذ مكة بين الأقرع وعُيينة[3] .

في هذا الخبر موقف لرسول الله ﷺ ولأبي بكر رضي الله عنه في

---

(١) يعني عيينة بن حصن زعيم غطفان .

(٢) ركوبة والعرج موضعان على طريق مكة من المدينة .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٨٠٣ - ٨٠٤ .

الحفاظ على سرِّية الهدف الذي قصده رسول الله ﷺ ، وقد استمر كتمان هذا الهدف حتى وصل الجيش الإسلامي إلى مكة وهذا التخطيط المحكم كان من أسباب نجاح رسول الله ﷺ في الوصول إلى مكة من غير أن يعلم أهلها بذلك .

* * *

٩ – مثل من رحمة النبي ﷺ –

(إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية)

قال ابن إسحاق . وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله ابن أبي أُميَّة بن المُغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ أيضًا بنيْق العُقاب، فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدّخول عليه ، فكلمته أمّ سلمة فيهما، فقالت : يارسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهْرك، قال : لاحاجة لي بهما ، أما ابن عمي فهَتَكَ عرضي وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال . قال : فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبي سفيان بُنيّ له ، فقال : والله ليأذننَّ لي أو لآخذن بيدي بنيّ هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشا وجُوعا، فلما بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ رقَّ لهما ، ثم أذن لهُما ، فدَخلا عليه ، فأسلما .

وأنشد أبو سُفيان بن الحارث قوله في إسلامه ، واعتذر إليه مما كان مَضى منه، فقال :

لعَمْرك إني يوم أحْمِلُ رايةً ... لتغْلبَ خَيْلُ اللات خيلَ محمّد

لكالمُدلج الحيران أظلم ليلُهُ ... فهذا أواني حين أُهدَى واهتدي

هداني هاد غيرُ نفسي ونالَني ... مع الله من طرَّدتُ كل مُطرَّد

أصدّ وأنأى جاهدًا عن محمد ... وأُدعَى وإن لم أنتسب من محمَّد

هُمُ ماهم منْ لم يقُل بهواهم ... -وإن كان ذا رأى-يُلَم ويُفنَّد[1]

---

(١) يفنَّد يعني يُخطَّأ ويسفَّه .

أريد لأرضيهم ولستُ بــــلائط[1] مع القوم مالم أُهْدَ في كل مقعد

فـقُل لثـقيف : لا أريـــــد قتـــالها وقل لثقيف تلك غَيْريَ أوْ عدي

فما كنتُ في الجيش الذي نال عامرًا وماكان عن جرًّا لساني ولايدي

قبـــائل جـــاءتْ مـــن بـــلاد بـعيدة نزائع جاءت مـــن سهام وسَرْدَد

قال ابن هشام : ويروى « ودلَّني على الحقّ من طردت كلّ مطرد » .

قـــال ابن إســحـــاق : فـزعـمـــوا أنه حين أنشــد رســول الله ﷺ قـوله : «ونالني مع الله من طرّدت كل مطرد » ضـرب رسـول الله ﷺ في صدره، وقال : أنت طردتني كل مطرّد ؟[2] .

أما قوله « وأدْعَى – وإن لم أنتسب – من محمد » فله قصة ذكرها الواقدي فقال : وأما قوله : وأُدعَى وإن لم أنتسب من محمد » فإنه هرب وقدم على قيصر ملك الروم ، فقال : ممن أنت ؟ فانتسب له أبو سُفيان ابن الحارث بن عبد المطلب . قال قيصر : أنت ابن عمّ محمد إن كنت صادقًا ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ قال : قلت : نعم ، أنا ابن عمّه . فقلت : لا أراني عند ملك الروم وقد هربت من الإسلام ، لا أعْرَف إلا بمحمد ! فدخلني الإسلام وعرفتُ أنّ ماكنت فيه باطلٌ من

---

(١) أي لاصق .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٢ – ٢٤ ، وأخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي – المستدرك٣/ ٤٣ – ٤٥ – ، وذكره الهيثمي من رواية الطبراني وقال : ورجاله رجال الصحيح – مجمع الزوائد ٦/ ١٦٤-١٦٧- . .

الشرك، ولكنَّا كنَّا مع قوم أهل عُقول باسقة ، وأرى فاضل الناس يعيش في عقولهم ورأيهم ، فسلكوا فَجّاً فسلكناه . ولَمَّا جعل أهل الشَّرَف والسِّنِّ يقتحمون عن محمد وينصرون آلهتهم ويغضبون لآبائهم اتبعناهم[1] .

في هذا الخبر مثل من رحمة رسول الله ﷺ البالغة ، فهذا ابن عمه أبو سفيان بن الحارث الذي هجاه بشعره كثيرا ، وابن عمته عبد الله بن أبي أمية الذي قال له بمكة : فو الله لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلَّما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتي بصكّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول ، ثم وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك[2] .

ومع فداحة جرمهما فإن النبي ﷺ عفا عنهما وقبل عذرهما، وهذا مثل عال في الرحمة والعفو والتسامح .

ولقد كفَّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السابقة بهذه القصيدة البليغة التي قالها في مدح النبي ﷺ وبيان اهتدائه به ، ولقد حسن إسلامه وكان له موقف مشرف في الجهاد مع رسول الله ﷺ في معركة حنين .

* * *

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨١١ - ٨١٢ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٥ - ٣٠٠ .

١٠ – مثل من التخطيط الحربي الدقيق –

أخرج الواقدي رحمه الله تعالى من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : لما كنا بالكَديد بين الظُّهر والعَصر أخذ رسول الله ﷺ إناءً من ماء في يده حتى رآه المسلمون ، ثم أفطر تلك الساعة . وبلغ رسولَ الله ﷺ أنَّ قومًا صاموا فقال : أولئك العُصاة ! وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله ﷺ : إنكم مُصبِّحو عدوِّكم ، والفطر أقوى لكم ! قال ذلك بمَرِّ الظَّهْران . فلما نزل رسول الله ﷺ العَرج ، والناس لايدرون أين توجَّه رسول الله ﷺ ، إلى قريش ، أو إلى هوازن، أو إلى ثقيف ! فهم يُحبّون أن يعلموا ، فجلس في أصحابه بالعَرْج وهو يتحدّث ، فقال كعب بن مالك : آتي رسول الله ﷺ فأعلمُ لكم علم وجهه . فجاء كعب فبرك بين يدي رسول الله ﷺ على رُكبتيه ، ثم قال :

قضينا من تهامةَ كلَّ رَيْب ... وخَيْبَرَ ثم أجْمَمْنَا[١] السُّيوفا

نُسائلها ولوْ نَطَقَتْ لَقَالتْ ... قواطعُهُنَّ دَوسًا أو ثقيفا

فَلَستُ لحاضر إن لم ترَوها ... بساحة داركُم منها أُلوفا

فَنَنْتَزِعُ الخيامُ ببَطْن وَجٍّ[٢] ... ونَتْرُكُ دُورَهم منهم خُلوفا

أنشدنيها أيّوب بن النُّعمان ، عن أبيه . قال : فتبسم رسول الله ﷺ، ولم يزد على ذلك . فجعل الناس يقولون : والله ما بيَّن لك رسول الله شيئًا ، ما نَدْري بمن يبدأ ، بقريش أو ثقيف أو هَوازن[٣] .

---

(١) أجممنا : أرحنا (شرح أبي ذر ، ص ٤٠٧) .

(٢) هو وادي الطائف المشهور .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٨٠٢ .

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم حائرين طوال الطريق لايدرون أين هدف النبي ﷺ ، وكان أبو بكر يعلم ذلك كما سبق أن النبي ﷺ أخبره بأنه يريد مكة وأمره بكتمان ذلك ، ومع ماكان من محاولة كعب ابن مالك رضي الله عنه بقصيدته المذكورة فإن النبي ﷺ لم يخبره بوجهته ولم يزد على أن تبسم لأنه عرف مقصده ، وهذا مثل على القدرة الإدارية العالية والتخطيط الحربي الدقيق عند رسول الله ﷺ .

* * *

١١ - مثل من رحمة النبي ﷺ بالحيوان -

قال الواقدي : حدثني عبد الرحمن بن محمد ، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم ، قال : لما سار رسول الله ﷺ من العَرْج ، فكان فيما بين العَرج والطَّلوب، نظر إلى كلبة تَهرُّ على أولادها وهم حولها يرضعونها، فأمر رجلاً من أصحابه يُقال له جُعَيل بن سُراقة أن يَقوم حذاءَها ، لايعرض لها أحدٌ من الجيش ولأولادها (١) .

وهكذا شملت رحمة النبي ﷺ الحيوان فأوقف أحد الصحابة يحرس تلك الكلبة حتى لاتتضرَّر هي وأولادها من مرور الجيش، وهناك أمثلة أخرى من رحمته ﷺ بالحيوانات والطيور ، وإن تلك الأخبار لأبلغ بكثير وأعظم أثرًا من كل جمعيات الرفق والحيوان .

* * *

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٠٤ .

١٢ – مثل من حزم الصحابة ودقة رصدهم –

قال الواقدي : حدثني مُعاذ بن محمد ، عن عبد الله بن سعد ، قال : لما راح رسول الله ﷺ من العَرج تقدمت أمامه جَريدة(١) من خيل طليعة ، تكون أمام المسلمين ، فلمّا كانت بين العرج والطلوب أتوا بعَيْن من هوازن إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يارسول الله ، رأيناه حين طلعنا عليه وهو على راحلته ، فتغيب عنَّا في وَهدة(٢) ، ثم جاء فأوفى على نَشَز فقعد عليه ، فركضنا إليه فأراد يهرُب منَّا ، وإذا بعيره قد عقله أسفل من النَّشز وهو يُغيِّبه ، فقلنا : ممن أنت ؟ قال : رجلٌ من بني غفار . فقلنا : هم أهل هذا البلد . فقلنا : من أي بني غفار أنت ؟ فَعَيِيَ ولم يُنفذ لنا نسبًا ، فازددنا به ريبةً وأسأنا به الظن . فقلنا : فأين أهلك ؟ قال : قريبًا ! وأومأ بيده إلى ناحية . قلنا : على أي ماء ، ومن معك هنالك؟ فلم ينفذ لنا شيئًا ، فلما رأينا ماخلط . قلنا : لتَصْدُقَنَّا أو لنضربن عنقك ! قال : فإن صدقتكم ينفعني ذلك عندكم ؟ قلنا : نعم . قال : فإني رجلٌ من هوازن من بني نَصْر ، بعثتني هوازن عينًا . وقالوا : ائت المدينة حتى تَلقى محمدًا فتستخبر لنا مايُريد في أمر حلفائه : أيبعث إلى قريش بعثًا أو يغزوهم بنفسه ، ولانراه إلا يستغورهم(٣) ، فإن خرج سائرًا أو بعث بعثًا فسر معه حتى تنتهي إلى بطن سَرف ، فإن كان يُريدنا أوَّلاً فيسلك في بطن سَرف حتى يخرج إلينا ، وإن كان يُريد قُريشًا فسيلزم الطريق .

فقال رسول الله ﷺ : وأين هوازن ؟ قال : تركتُهم ببَقْعاء وقد

(١) الجريدة من الخيل : هي التي جردت من معظم الخيل للقيام بمهمة .

(٢) الوهدة : الأرض المنخفضة .

(٣) المقصود أنه سيفاجئهم بالإغارة .

جمعوا الجموع ، وأجلبوا في العرب ، وبعثوا إلى ثَقيف فأجابتهم ، فتركتُ ثقيفًا على ساق قد جمعوا الجموع ، وبعثوا إلى الجُرَش[1] في عمل الدَّبَّابات والمنجنيق ، وهم سائرون إلى جمع هوازن فيكونون جمعًا . قال رسول الله ﷺ : وإلى من جعلوا أمرهم ؟ قال : إلى فتاهم مالك بن عوف . قال رسول الله ﷺ : وكلّ هوازن قد أجاب إلى مادعا إليه مالك ؟ قال : قد أبطأ من بني عامر أهلُ الجدّ والجَلَد . قال : مَن؟ قال : كعبُ وكلابٌ . قال مافعلت هلال ؟ قال : ماأقل من ضَوى إليه منهم ، وقد مررت بقومك أمس بمكة وقد قدم عليهم أبو سُفيان بن حرب فرأيتهم ساخطين لما جاء به ، وهم خائفون وَجلون[2] .

في هذا الخبر موقف لهؤلاء الصحابة الذين كانوا طليعة للمسلمين ، وذلك في دقة رصدهم وحزمهم في استجواب ذلك العين الذي بعثه الأعداء من هوازن لرصد تحرك الجيش الإسلامي ومعرفة وجهة سيره ، ويشاء الله أن ينكشف أمر ذلك الجاسوس وأن يتحول الأمر لصالح المسلمين حيث أخبرهم عن جمع هوازن وعن وضع أهل مكة .

* * *

(١) الجرش : من مخاليف اليمن من جهة مكة (معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٨٤) .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٨٠٤ - ٨٠٥ .

١٣ - خبر مسير النبي ﷺ إلى مكة -

أخرج الحافظ إسحاق بن راهويه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله ﷺ إلى مكة لعشر مَضيْن من رمضان ، فصام ، وصام الناس ، حتى إذا كان بالكديد أفطر ، فنزل مَرَّ الظهران ، في عشرة آلاف من الناس ، فيهم ألف من مزينة ، وسبعمائة من بني سليم ، وقد عُمِّيت الأخبار على قريش ، فلا يأتيهم خبر عن النبي ﷺ ، ولايدرون ماهو فاعله ، وقد خرج تلك الليلة أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبُدَيل بن ورقاء الخزاعي ، يتحسسون الأخبار .

قال العباس : فلما نزل رسول الله ﷺ حيث نزل قلت : واصباحَ قريش ، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنوة ، ليكونن هلاكهم إلى آخر الدهر ، فركبت بغلة رسول الله ﷺ البيضاء حتى جئت الأراك ، رجاء أن ألتمس بعض الحَطَّابة أو صاحبَ لبن ، أو ذا حاجة يأتي مكة ، فيخبرهم بأمر رسول الله ﷺ فيخرجوا إليه ، فو الله إني لأسير ألتمس ماجئت به ، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، فقال أبو سفيان : والله ما رأيت كالليلة نيرانًا ، ولاعسكراً ، فقال له بديل : هذه والله خزاعة ، قد حَمَشْتها الحرب ، فقال أبو سفيان : خزاعةُ والله أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هذه نيرانها ، فقلت : يا أبا حنظلة ، تعرف صوتي ؟ فقال : أبو الفضل ؟ قلت : نعم ، قال : مالك فداكَ أبي وأمي ؟ فقلت : هذا والله رسولُ الله في الناس ، واصباح قريش! قال : فما الحيلة ، فداك أبي و أمي ؟ قال : قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب عجُزَ هذه البغلة ، فركب ورجع صاحباه ، فخرجت به فكلما مررت بنار من نيران المسلمين . قالوا : من هذا ؟ فإذا

رأوا بغلة رسول الله ﷺ عليها عمُّه ، قالوا : هذه بغلة رسول الله ﷺ عليها عمه ، حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام إليّ ، فلما رآه على عَجُز البغلة عرفه ، فقال : والله عدوٌّ الله ، الحمد لله الذي أمكن منك ، فخرج يشتدّ نحو رسول الله ﷺ ودخل ، ورفعت البغلة فسبقته بقدر ما تسبق الدابة البطيئةُ الرجل البطيء ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عمر ، فقال : هذا عدُّو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه ، في غير عهد ولا عقد ، فدعني فأضرب عنقه فقلت : قد أجرتُه يارسول الله ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه ، فقلت : والله لايناجيه الليلة رجلٌ دوني ، فلما أكثر عمر ، قلت : مهلاً ياعمر ، فو الله لو كان رجلا من بني عدي ماقلت هذا ، ولكنه من بني عبد مناف ، فقال : مهلا ياعباس ، لاتقل هذا ، فوالله لإسلامك حين أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب أبي لو أسلم ، وذلك أني عرفت أن إسلامك أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب ، فقال رسول الله ﷺ : « ياعباس ، اذهب به إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنا به » .

فذهبت به إلى الرحل ، فلما أصبحتُ غدوتُ به ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يَأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ » فقال : بأبي وأمي ما أحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك ، وأعظم عفوك ، لقد كاد أن يقع في نفسي أنْ لو كان إلهٌ غيره لقد أغنى شيئًا بعدُ ، فقال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ » فقال : بأبي وأمي ماأحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك ، وأعظم عفوك ، أما هذه فكأن في النفس منها حتى الآن شيءٌ ، قال العباس : فقلت :

ويلك ، أسلم ، واشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله قبل أن يُضرب عنقك ، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قال العباس : فقلت يارسول الله ! إن أبا سفيان يحب الفخر ، فاجعل له شيئًا ، فقال : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » .

فلما انصرف إلى مكة ليخبرهم ، قال رسول الله ﷺ « احبسه بمضيق من الوادي عند حطم الخيل [1] ، حتى تمر به جنود الله » فحبسه العباس حيث أمره رسول الله ﷺ فمرّت القبائل على ركبانها ، فكلما مرّت قبيلة ، قال : من هذه ؟ فأقول : بنو سليم ، فيقول : ما لي ولبني سليم ، ثم تمرّ أخرى ، فيقول : ماهؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالي ولمزينة ، فلم يزل يقول ذلك حتى مرّت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء[2] ، فيها المهاجرون والأنصار ، لايُرَى منهم إلا الحَدَق[3] ، قال : من هؤلاء ؟ فقلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قبَل ، والله لقد أصْبَحَ ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا ، فقلت : ويحك يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فَنعم إذًا . فقلت : النَّجاءَ إلى قومك ، فخرج حتى أتاهم بمكة ، فجعل يصيح بأعلى صوته : يامعشر قريش ، هذا محمد ، قد أتاكم بما لاقبَل لكم به ، فقامت امرأته هند بنت عتبة ، وأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحَميت الدَسم الأحمس[4] قُبِّح من طليعة قوم ، فقال أبو سفيان : لا تغرنّكم هذه من أنفسكم ، من دخل دار

(١) أي ازدحامها (فتح الباري ٨/ ٨) .

(٢) قال ابن هشام : وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .

(٣) أي العيون .

(٤) الحميت وعاء السمن ، والأحمس الكثير اللحم ، تريد وصفه بضخامة الجسم .

أبي سفيان فهو آمن . فقالوا : قاتلك الله، وما تغني عنَّا دارك ؟ قال : ومن أغلق بابه فهو آمن .

ذكره الحافظ ابن حجر ونسبه إلى إسحاق بن راهويه وقال : هذا حديث صحيح (١) .

وهكذا وصل رسول الله ﷺ مكة المكرمة بذلك الجيش الكثيف ولم يعلم به أهل مكة ، وهذا يرجع أولاً إلى عناية الله تعالى ولطفه حيث استجاب جل وعلا دعاء رسوله ﷺ السابق ، ويرجع ثانيًا إلى دقة التخطيط وحسن التدبير من رسول الله ﷺ .

وفي هذا الخبر موقف لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه « والله لإسلامك حين أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب أبي لو أسلم ، وذلك أني عرفت أن إسلامك أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب » وهذا تعبير بليغ عن عمق محبة عمر لرسول الله ﷺ حيث قدَّم ما يحبه وهو إسلام العباس على ما يحبه هو وهو إسلام الخطاب .

* * *

(١) المطالب العالية ٤/ ٢٤٤ - ٢٤٨ ، رقم ٤٣٦٢ ، وأخرجه الإمام الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وذكر نحوه ، ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ١٦٤ - ١٦٧ .

وأخرجه الإمام البخاري مختصرا من حديث عروة بن الزبير - صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٢٨٠ (٨/ ٥) .

وأخرجه ابن إسحاق والواقدي وذكرا نحو رواية إسحاق بن راهويه ، وقد تم تصحيح بعض الأخطاء من روايتي ابن إسحاق والواقدي .

سيرة ابن هشام ٤/ ٢٤ - ٢٩ - .

مغازي الواقدي ٢/ ٣١٦ - ٣٢٠ - .

١٤ - أمثلة من تواضع النبي ﷺ -

١ - أخرج الواقدي بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : دخل رسول الله ﷺ يومئذ وعليه عمامة سوداءُ ، ورايته سوداءُ، ولواؤه أسود، حتى وقف بذي طُوًى وتوسط الناس و إن عُثْنُونَه[١] ليمس واسطة الرَّحل أو يَقْرُب منه ، تواضعا لله تعالى حين رأى ما رأى من فتح الله وكثرة المسلمين . ثم قال : العَيشُ عيْشُ الآخرة ! [٢] .

وهكذا دخل رسول الله ﷺ مكة وتحت قيادته عشرة آلاف مقاتل، وهو الذي خرج منها مستخفيا قبل ثمان سنوات وليس معه إلا صاحبه أبو بكر رضي الله عنه ، وإنه لفرق شاسع بين وضعه في خروجه ودخوله .

إنه لموقف يستهوي النفوس البشرية أن تبلغ الذروة في الكبرياء والجبروت والتعالي على الناس ، خصوصا إذا علمنا أن من قدم عليهم رسول الله ﷺ بهذه الجموع الكثيرة هم الذين آذوه كثيرا وحاولوا قتله حتى خرج من بين أظهرهم مستخفيا ، فكان الوضع البشري المعتاد أن تبرز مظاهر الأبَّهة والخيلاء والرغبة في الانتقام لإذلال من سبقت منهم العداوة والإهانة ، ولكنه ﷺ دخل مكة مُطَأطًا رأسه تواضعا لله تعالى حتى ليكاد ذقنه يمس رحل بعيره ، وهذا مشهد رائع مثير لايكاد يتصف

---

(١) أي ذقنه .

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٨٢٣ - ٨٢٤ .

وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٤/ ٢٩ - ٣٠ - .

وأخرجه البيهقي من طريقين عن أنس بن مالك رضي الله عنه وعن عبد الله بن أبي بكر بن حزم - دلائل النبوة ٥/ ٦٨ - .

بـه إلا مـن اصـطـفاهـم الله تـعـالـى لـرسـالـته .

وإن رسول الله ﷺ بهذا الخلق الإسلامي الرفيع ليضرب المثل للقادة من أمته كي يتشبهوا به في التواضع لله عز وجل ، والانتصار الكبير على هوى النفوس المخالف للمبادئ الإسلامية .

فهل أفرزت جميع الانتصارات الكبرى التي دوَّنها التاريخ مثل هذا الخلق الرفيع ؟ اللهم لا ، بل إنه من المستحيل أن يوجد مثل هذا الخلق بغير الإسلام .

إن هذا المشهد الرائع ليدلنا على عمق استحضار ا لنبي ﷺ لعظمة الله عز وجل حتى كأنه يراه ماثلاً أمامه ، وإن من النتائج المسلَّمة في هذا أن يحتقر كل مظاهر الدنيا لأنها لاتساوي شيئًا أمام عظمة الله جل وعلا ، وإنه على قدر وجود الإيمان بالله تعالى في قلب المؤمن واستحضاره لعظمته تكون درجة إيمانه ، ولاشك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - وعلى رأسهم رسول الله ﷺ - قد بلغوا الكمال الأعلى في ذلك .

٢ - أخرج الحافظ البيهقي بإسناده عن قيس بن أبي حازم البجلي قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ يكلِّمه فأُرعد الرجل ، فقال له : هوِّن عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

ورواه من طريق آخر موصولا عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ولكنه قال عن المرسل هو المحفوظ (١) .

---

(١) دلائل النبوة ٥/ ٦٩ ، وقوله ﷺ « أنا ابن امرأة من قريش » لايعارضه ما اشتهر من أن بني النجار من الأنصار أخواله فإن أمه من بني زهرة من قريش وليست من بني النجار ، وإنما بنو النجار أخوال جده عبد المطلب لأن أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو من بني النجار .

فهذا مثل من تواضع النبي ﷺ للناس، فهو في هذه القصة لم يغتنم فرصة هيبة الناس له المبنية على الحب البالغ والإعجاب الكبير بأخلاقه العالية . . لم يغتنم ذلك ليرسِّخ لنفسه مظاهر العظمة والتعالي، وحاشاه أن يفعل ذلك ، بل سارع في هذه القصة إلى محو ما قد يعلق في بعض النفوس من تصور المظاهر التي تعارف الناس عليها بالنسبة للسادة والزعماء، وإلى تقليص الحواجز التي قد تحول بين الرعية والراعي، فذكر لذلك الرجل أنه ﷺ ابن امرأة من قريش قد نشأت على التواضع والزهد حيث كانت تأكل اللحم المجفف .

أقول : بل أنت صلى الله عليك وسلم إمام الدنيا وهادي البشرية ومحييها بشرع الله بعد موتها ومُرَوِّيها بعد جفافها . . ولكنه التواضع العظيم الذي يحمل أصحاب النفوس الكبيرة على التهوين من شأنهم ليرفعوا من شأن الآخرين ، ويزيلوا الحواجز والكلفة من نفوسهم .

لم يذكر ﷺ لذلك الرجل أنه هادي البشرية وقائدها نحو النجاة، بل لم يذكر ماهو أقل من ذلك حيث لم ينسب نفسه إلى النسب الشريف والحسب الرفيع وأنه سليل السادة النجباء من قريش ، وذلك ليمحو من قلبه أثر الرعب الذي خالطه وهو يحدثه ، وليثبت له ولسائر الناس أن أعظم الناس هداية للأمة هو أشدهم تواضعا و أكرمهم أخلاقًا .

إن عظمة الرجل ليست في مقدرته على إرهاب من يقدر عليهم ، وإنما في رفع معنوياتهم حتى يستطيعوا التعبير عما في أنفسهم .

ولقد كان من عادة العرب أن ينتسبوا إلى آبائهم عند التفاخر ، لكن النبي ﷺ انتسب إلى أمه في خطابه لهذا الرجل ، وهذا منتهى التواضع الذي يعتبر في القمة من مكارم الأخلاق .

٣ - أخرج ابن إسحاق من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : لما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد ، أتى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال هلا تركتَ الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟ قال أبو بكر : يارسول الله ، هو أحقّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت ، قال : قالت : فأجلسه بين يديه ، ثم مَسح صدره، ثم قال له : أسلم ، فأسلم ، قالت : فدخل به أبو بكر وكأن رأسه ثغامة ، فقال رسولُ الله ﷺ : غيروا هذا من شعره[1] .

وهذا مثال آخر على تواضع النبي ﷺ للناس ، فقد كان على استعداد لزيارة والد أبي بكر رضي الله عنهما في بيته مع ما هو فيه من قيادة الأمة وما ينتظره من مهام الأمور .

وقد سنّ النبي ﷺ في هذا الخبر سنة توقير كبار السن واحترامهم ، ويؤكد ذلك قوله ﷺ « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا»[2] ، وقوله « إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم . . » الحديث[3] .

كما أن مما سنّه رسول الله ﷺ في هذا الخبر إكرام أقارب ذوي البلاء والتقدم في الإسلام مكافأة لهم على ما قدموه من خدمة للمسلمين ونصر للدعوة الإسلامية .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٠ - ٣١ .

وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمامين أحمد والطبراني عن أسماء رضي الله عنها ، وذكر نحوه وقال : ورجالهما ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) مسند أحمد ١/ ٢٥٧ ، سنن الترمذي ، كتاب البر ، باب ١٥ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب ٢٠ .

١٥ - دخول المسلمين مكة -

١ - قال ابن إسحاق : وقد حدثني عبد الله بن أبي نَجيح في حديثه أن رسول الله ﷺ أمر خالد بن الوليد ، فدخل من اللِّيط ، أسفل مكة ، في بعض الناس ، وكان خالد على المُجنَّبة اليمني ، وفيها أسلمُ وسُليم وغفار ومُزينة وجُهينة وقبائل من قبائل العرب ، وأقبل أبو عُبيدة بن الجرّاح بالصفّ من المسلمين ينصبُّ لمكة بين يدَي رسول الله ﷺ ، ودخل رسولُ الله ﷺ من أذاخر ، حتى نزل بأعلى مكة ، وضُربت له هنالك قُبته .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي نَجيح وعبد الله بن أبي بكر : أن صفوان بن أميَّة وعكرمة بن أبي جهل وسُهَيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناسا بالخَندمة ليقاتلوا ، وقد كان حماس بن قَيس بن خالد ، أخو بني بكر ، يُعدّ سلاحا قبل دُخول رسول الله ﷺ ، ويُصلح منه ، فقالت له امرأته : لماذا تعدّ ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، قال : والله إني لأرجو أن أُخدمك بعضهم ثم قال :

إن يُقبلوا اليوم فما لي علَّهْ هــذا ســلاحٌ كامل وألَّهْ (١)

وذو غرارين سريع السَّلة (٢)

ثم شهد الخَندمة مع صفوان وسُهيل وعكرمة ، فلما لقيهم المسلمون

---

(١) الألّة الحربة ذات السنان الطويل .

(٢) ذو غرارين يعني السيف ، والغرار بكسر الغين معناه الحد ، وسريع السلة يعني سريع الخروج من الغمد .

من أصحاب خالد بن الوليد ، ناوشوهم شيئًا من قتال ، فَقُتلَ كُرز بن جابر ، أحد بني محارب بن فهر ، وخُنيس بن خالد بن ربيعة بن أصرم ، حليف بني مُنقذ ، وكانا في خيل خالد بن الوليد فشذّا عنه فسلكا طريقا غير طريقه فقتلا جميعا ، قُتل خنيس بن خالد قبل كرز بن جابر ، فجعله كرز بن جابر بين رجليه ، ثم قاتل عنه حتى قتل : وهو يرتجز ويقول :

قد علمتْ صفراء من بني فهرْ نقيَّة الوَجه نقيَّة الصَّدرْ

لأضر بنَّ اليومَ عن أبي صَخرْ

وقال ابن هشام : وكان خُنيس يُكنى أبا صخر ، قال ابن هشام : خُنيس بن خالد من خزاعة .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي نجيح وعبد الله بن أبي بكر ، قالا : وأصيب من جُهينة سلمة بن الميلاء ، من خيل خالد بن الوليد ، وأصيب من المشركين ناس قريب من اثنى عشر رجلا ، أو ثلاثة عشر رجلا ، ثم انهزموا ، فخرج حماسٌ منهزما حتى دخل بيته ، ثم قال لامرأته : أغلقي عليّ بابي ، قالت . فأين ماكنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمهْ إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمه

وَأبُو يزيدَ قائم كالمؤتمةْ واستَقْبلتهُمْ بالسُّيوف المُسْلمه[1]

يقطعنَ كلّ ساعد وجُمجمه ضربا فلا يُسمع إلا غمغمه

لهم نَهيتٌ خَلْفنا وهَمهمه لم تنطقي في اللَّوم أدنى كلمه[2]

(١) أبو يزيد هو سهيل بن عمرو ، والمؤتمة بكسر التاء هي المرأة التي قتل زوجها في الحرب وترك لها أولادا صغارا .

(٢) النهيت نوع من زئير الأسد ، والهمهمة الصوت الذي يخرج من الصدر .

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وحُنين والطائف، شعارُ المهاجرين : يابني عبد الرحمن، وشعار الخزرج : يابني عبد الله، وشعار الأوس : يابني عبيد الله .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ قد عَهِدَ إلى أمرائه من المسلمين- حين أمرهم أن يدخلوا مكة - أن لايُقاتلوا إلا من قاتلهم [1] .

٢ - أخرج الواقدي عن شيوخه قالوا : ومكث رسول الله ﷺ في منزله ساعةً من النهار [2] واطمأنّ واغتسل ، ثم دعا براحلته القَصواء فأدنيت إلى باب قُبَّته ، ودعا للُبْس السلاح ، والمغفر على رأسه، وقد صَفَّ له الناسُ ، فركب براحلته والخيل تمْعج بين الخَنْدمَة إلى الحَجون، ومرَّ رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه إلى جنبه يسير يُحادثه ، فمرّ ببنات أبي أحَيْحَة بالبطْحاء حذاء منزل أبي أحَيحة وقد نشرن رُءوسهنَّ، يلطمن وجوه الخيل بالخُمُر ، فنظر رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فتبسَّم ، وذكر بيت حَسان بن ثابت فأنشده أبو بكر رضي الله عنه :

تظَلُّ جيادُنا مُتَمَطِّرات تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُر النِّساءُ [3]

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الكعبة فرآها ، ومعه المسلمون ، تقدّم على راحلته فاستلم الرُّكن بمحْجنه ، وكبّر فكبّر المسلمون لتكبيره، فرجَّعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيراً حتى جعل رسول الله ﷺ يُشير إليهم : اسكتوا ! والمشركون فوق الجبال ينظرون [4] .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٢ - ٣٥ .

(٢) يعني في المكان الذي نزل فيه وذلك في الحجون .

(٣) وذلك من قصيدته الهمزية العصماء التي سبق ذكرها .

(٤) مغازي الواقدي ٢/ ٨٣١ .

وهكذا دخل الرسول ﷺ إلى الكعبة ولم يكن قتال إلا ما كان من طائفة من المشركين لم يقبلوا أمان النبي ﷺ فقاوموا عند الخندمة وتصدى لهم خالد بن الوليد رضي الله عنه بجيشه حتى هزمهم .

وكون النبي ﷺ يصل إلى الكعبة بدون مقاومة تُذكر ولاقتال دليل على حسن إدارته وتدبيره للأمور وتعظيمه لحرمات الحرم .

وبهذا تم فتح مكة المكرمة وتلاشى أكبر عدو للإسلام والمسلمين، ودخل أهل مكة بعد ذلك في الإسلام وكانوا من أعظم المجاهدين في سبيل الله تعالى .

وقد أضاف النبي ﷺ كما جاء في هذا الخبر أمانًا آخر لأهل مكة وذلك بأمره قادته أن لايقاتلوا إلا من قاتلهم ، وبذلك أمنَ الذين انهزموا من لقاء الخندمة والذين صعدوا على الجبال .

وفي هذا الخبر إشادة بحسان بن ثابت رضي الله عنه حيث وقع ما أخبر به في شعره بقوله :

تظل جيادنا متمطرات　　　تلطمهن بالخمر النساء

وذلك حينما خرجت النساء يلطمن وجوه الخيل بخمرهن في البطحاء ، مما أثار إعجاب النبي ﷺ حيث نظر إلى أبي بكر رضي الله عنه وتبسم وذكر بيت حسان هذا ، وهذا من إلهام الله تعالى لحسان .

*　　*　　*

١٦ - مثل من أمانة النبي ﷺ ووفائه - (رد مفتاح الكعبة لبني شيبة)

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عُبيد الله ابن عبد الله ابن أبي ثور ، عن صفية بنت شيبة ، أن رسول الله ﷺ لما نزل مكة ، واطمأنّ الناس ، خرج حتى جاء البيتَ ، فطاف به سبعا على راحلته ، يستلم الركن بمحجن في يده ، فلما قضى طوافه ، دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففُتحت له ، فدخلها ، فوجد فيها حمامة من عيدان ، فكسرها بيده ثم طرحها ثم وقف على باب الكعبة وقد استكفّ له الناس[١] في المسجد .

قال ابن إسحاق : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة ، فقال : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثُرة أو دم أو مال يُدَّعى فهو تحت قَدَميّ هاتين ، إلاّ سدانة البيت وسقاية الحجاج ، ألا وقتيلُ الخطأ شبه العمْد بالسوط والعصا ، ففيه الدّيَة مغلظة : مئة من الإبل ، أربعون منها في بُطونها أولادها . يامعشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوةَ الجاهلية ، وتعظُّمها بالآباء ، الناسُ من آدم ، وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [**الحجرات** : ١٣] الآية كلها . ثم قال : يامعشر قريش ، ماتُرَون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

---

(١) أي اجتمعوا له .

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ، فقام إليه عليّ بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده ، فقال : يارسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السّقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة؟ فُدعيَ له ، فقال : هاك مفتاحك ياعثمان ، اليومُ يوم برّ ووفاء[1] .

وذكره الهيثمي وقال : رواه الطبراني مرسلا ورجاله رجال الصحيح[2] .

وروى نحوه عبد الرزاق الصنعاني ، ثم قال : فحدثت به ابن عيينة فقال : أخبرني ابن أبي مُلَيكة أن النبي ﷺ قال لعلي يومئذ - حين كلمه في المفتاح - : « إنما أعطيتكم ما تُرْزَؤُون ولم أعطكم ما تَرْزَؤُون» يقول : أعطيتكم السقاية لأنكم تَغْرَمون فيها ، ولم أعطكم البيت ، أي أنهم بأَخْذه يأخذون من هديته [3] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : ردُّ النبي ﷺ مفتاح الكعبة إلى بني شيبة ، لقد كانت السلطة الكاملة آنذاك بيد النبي ﷺ وكان باستطاعته أن يمنح بني هاشم شرف حجابة البيت ، ولكنه يعلم أن ذلك يتعارض مع خلق الوفاء والبر ، فبنو شيبة لهم حق التوارث في ذلك فمن البرِّ بهم أن لاينزعه منهم ، ومن الوفاء أن يرد المفتاح إليهم ولذلك قال لعثمان بن طلحة الشيبي : « هاك مفتاحك ياعثمان ، اليوم يوم بر ووفاء » .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٤٠ - ٤٢ ، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر - فتح الباري ٨/ ١٨ - .

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١٧٦ - ١٧٧ .

(٣) مصنف عبد الرزاق ٥/ ٨٣ - ٨٤ ، رقم ٩٠٧٣ .

وفي هذا الخبر مثل واضح لتمييز النبي ﷺ بين بر الأقارب وإقرار العدالة في إعطاء الناس حقوقهم .

إن للقرابة حقا ثابتا من البر والإحسان ، ولكن يجب أن لايطغى لزوم ذلك على مبدإ إقرار العدالة في الأرض ، لأن ذلك من الظلم ، وقد يحدث بسبب عدم تطبيق العدالة فساد في الأرض ، وقد كان رسول الله ﷺ يراعي هذا المبدأ في كل توجيهاته وأحكامه .

ثانيًا : ماجاء في خطبة النبي ﷺ من بيان بعض العقائد والأحكام ومخاطبة قريش بالعفو والتسامح ، فمن ذلك إلغاء مآثر الجاهلية التي تتنافى مع الإسلام ، ولقد كان النبي ﷺ قويا حازما في هذا القرار لأن بعض المآثر يعتز بها المشركون .

ومن ذلك إقرار المساواة بين المسلمين في الأنساب التي يعتز بها أهل الجاهلية ، فالناس يجمعهم جميعا آدم عليه السلام ، وإنما أحدث الناس التميز في الأنساب حسب أهوائهم ، وقد بين النبي ﷺ الشيء الوحيد الذي يتفاضل فيه المسلمون ، ألا وهو التقوى ، حيث تلا قول الله تعالى **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣]** .

وقد ختم النبي ﷺ خطبته بموقفه العظيم في العفو عن قومه والتسامح معهم حيث قال « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

لقد قابل ﷺ إساءة قومه بالإحسان ، وعداوتهم بالعطف والرحمة ، وغض الطرف عن كل ماوصل إليه منهم من أذى وإهانة .

تُرَى لو كانوا هم الذين ظفروا بالنبي ﷺ ماذا كانوا يصنعون به ؟!

إن كل مـا يتـصـوره البـشـر من وسـائل التـعـذيب والإهانة يمكن أن يجعلوها مقدمة لقتله والتخلص منه .

لكنه ﷺ أطلقـهم كـاملي الحـرية من غيـر أن يمس كـرامتـهم ولا أن يجرح مشاعرهم .

ولقد كان لهذا السلوك الكريم الأثر الكبير في هدايتهم حيث أسلموا جميعا على فترات .

وهذا منهج عـال يرسم مـعالمه النبي ﷺ في الدعـوة إلى الله تعـالى ليسير المسلمون على نهجه في التجرد من حظ النفس والنظر الخالص إلى مافيه هداية الناس وإعزاز الإسلام .

* * *

١٧ - مثل من إعزاز الإسلام والمسلمين - (أذان بلال فوق الكعبة)

قال ابن هشام : وحدثني[1] أن رسول الله ﷺ، دخل الكعبة عام الفَتح ومعه بلال ، فأمره أن يؤذّن ، وأبو سُفيان بن حَرب وعتَّاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوسٌ بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا ، فيسمع منه مايغيظه ، فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه مُحقّ لاتبعته ، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئًا ، لو تكلمت لأخبرَتْ عني هذه الحَصى ، فخرج عليهم النبي ﷺ ، فقال : قد علمت الذي قُلتم . ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتَّاب : نَشْهَد أنك رسول الله ، والله ما اطَّلع على هذا أحدٌ كانَ معنَا ، فنقُول أخْبركَ[2] .

في هذا الخبر مثل على اهتمام النبي ﷺ بإظهار عزة الإسلام وإغاظة المشركين ، وإكرام المؤمنين .

لقد أراد النبي ﷺ من أمر بلال بالأذان فوق الكعبة أن يُظهر عزة الإسلام حيث ارتفع نداؤه فوق أقدس مكان ، وأن يُعلم المشركين بأن الشرك لم يَعُدْلَه بقاء في تلك الأراضي المقدسة بعد أن ارتفع نداء التوحيد .

وفي أمر بلال بذلك إشعار لسادة قريش الذين لازالوا يعتزون بسيادتهم الجاهلية أنه بإمكان بلال ونحوه من الذين كانوا مستضعفين

(١) يعني من يثق به من أهل العلم الذي ذكره في خبر سابق .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٤٣ .

تحت أيديهم أن يتبوؤوا في الإسلام مكانا عاليا .

وقد كان من نتائج هذا الموقف أن صدرت من عَتَّاب بن أسيد هذه المقالة التي تمخض عنها إسلامه هو والحارث بن هشام حينما أخبرهم النبي ﷺ بما قالوا وهو غائب عنهم فعرفوا أنه رسول الله حقا بهذه المعجزة النبوية .

وهكذا قال عتاب هذه المقالة حال كفره حينما كانت القيم العالية عنده هابطة ، والموازين مقلوبة ، ولكن حينما نور الله تعالى بصيرته بالإسلام فلا شك أنه سيتمنى أن أباه كان من المهتدين ، وأن يشهد عظمة الإسلام وعزة المستضعفين .

لقد تحول هذا المشهد في عيني عتاب إلى بَرْد وسلام بعد أن كان لهيبًا وأحقادًا ، وهكذا تكون عظمة الإسلام في علاج النفوس المريضة الهابطة ودفعها إلى الآفاق العالية .

ولقد كان إيمان عتاب بن أسيد قويا ، مما جعل النبي ﷺ يثق به فيوليه إمرة مكة ، وقد كان موضع الثقة ، حيث كان قويا في تنفيذ أحكام الدين ، شديدا على المتهاونين بتنفيذ هذه الأحكام .

* * *

١٨ - مثل من وفاء النبي ﷺ -
(إشفاق الأنصار من بقاء النبي ﷺ بمكة)

أخرج الإمام مسلم بإسناده حديثا عن أبي هريرة رضي الله عنه في فتح مكة وقد جاء فيه : « فقالت الأنصار بعضهم لبعض : أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته ، قال أبو هريرة : وجاء الوحي ، وكان إذا جاء الوحي لايخفى علينا ، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي ، فلما انقضى الوحي قال رسول الله ﷺ : يامعشر الأنصار ، قالوا : لبيك يارسول الله ، قال : قلتم أما الرجل فأركته رغبة في قريته ، قالوا : قد كان ذاك ، قال : كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم ، والمحيا محياكم والممات مماتكم ، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون : والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضَّنَّ بالله وبرسوله ، فقال رسول الله ﷺ : إن الله ورسوله يُصَدِّقانكم ويعذرانكم»[١] .

وهكذا أشفق الأنصار رضي الله عنهم من أن يقيم رسول الله ﷺ بمكة ويتركهم ، لكن النبي الكريم الوفي لن يخلف وعده الذي وعدهم به يوم بيعة العقبة من عدم التحول عنهم إذا نصره الله تعالى وظهر أمره ، وحتى لو لم يكن هناك وعد فإن وفاءه لأولئك الأماجد الكرام الأسود الأشاوس الذين نصر الله بهم الإسلام وأقام بهم دولته . . إن وفاءه لهم يمنعه من أن يتحول عنهم ، ولذلك قال : « المحيا محياكم والممات مماتكم» وبهذا اطمأن الأنصار وامتلؤوا سعادة وحبورا .

* * *

---

(١) صحيح مسلم ، الجهاد ، رقم ١٧٨٠ (ص ١٤٠٥) .

١٩ - تحطيم الأصنام في مكة وخارجها -

١ - أخرج الإمامان البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ستون وثلاثمائة نصب [١] فجعل يطعنها بعود في يده ويقول﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ : ٤٩][٢] .

وقد سقطت هذه الأصنام كلها كما جاء في رواية أخرجها الإمام البيهقي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : « دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وعلى الكعبة ثلاثمائة صنم ، قال : فأخذ قضيبه فجعل يُهْوي به إلى صنم صنم وهو يَهْوي حتى مر عليها كلها [٣] .

٢ - أخرج ا لواقدي من حديث سعيد بن عمرو الهذلي قال : قدم رسول الله ﷺ مكة يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رمضان إلى أن قال : وبعث خالد بن الوليد إلى العُزَّى يهدمها ، فخرج خالد في ثلاثين فارسًا من أصحابه حتى انتهى إليها وهدمها ، ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال : هُدمتْ ؟ قال : نعم يارسول الله . فقال رسول الله ﷺ : هل رأيت شيئًا ما ؟ قال : لا . قال : فإنك لم تهدمها . فارجع إليها فاهدمها .

---

(١) يعني الأصنام ، سميت بذلك لأنها تنصب للعبادة .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، رقم ٤٢٨٧ (٨/ ١٥) ، صحيح مسلم ، كتاب الجهاد ، رقم ١٧٨١ (١٤٠٨) .

(٣) دلائل النبوة ٥/ ٧١ .

وقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٧٦ - وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

فرجع خالد وهو متغيظ ، فلما انتهى إليها جرَّد سيفه ، فخرجت إليه امرأةٌ سوداءُ عُريانة ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها ، قال خالد : وأخذني اقشعْرارٌ في ظهري ، فجعل [(١)] يصيح :

أيا عُزَّ شُدّي شدَّةً لاتكــذّبي   على خالد ألقي القناعَ وشَمِّري

أيا عُزَّ إن لم تقتلي المرءَ خالدًا   فبوئي بذنب عاجل أو تَنَصَّري

قال : وأقبل خالد بالسيف إليها وهو يقول :

يـاعُزّ كفــرانك لاسبحــانك   إني وجـدت الله قـد أهانك

قال : فضربها بالسيف فجزلها باثنين ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : نعم ، تلك العُزَّى وقد يئسَتْ أن تُعبد ببلادكم أبدًا .

ثم قال خالد : أي رسولَ الله : الحمد لله الذي أكرمنا وأنقذنا من الهَلَكة ! إني كنت أرى أبي يأتي إلى العُزَّى بحتْره [(٢)] ، مائة من الإبل والغنم ، فيذبحها للعُزَّى ، ويُقيم عندها ثلاثًا ثم ينصرف إلينا مسروراً ، فنظرت إلى ما مات عليه أبي ، وذلك الرأي الذي كان يُعاش في فضله ، كيف خُدع حتى صار يذبح لحَجَر لايسمع ولايُبصر ، ولايضرّ ولاينفع . فقال رسول الله ﷺ : إنَّ هذا الأمر إلى الله ، فمن يسّره للهُدى تيسر ، ومن يسره للضّلالة كان فيها .

قال : وكان هدْمها لخمس ليال بقين من رمضان سنة ثمان [(٣)] .

---

(١) يعني السادن .

(٢) أي بعطيته .

(٣) مغازي الواقدي ٣/ ٨٧٣ - ٨٧٤ .

وأخرج خبر هدم العزى ابن إسحاق بأخصر من هذا [1]

وأخرجه كذلك البيهقي من حديث أبي الطفيل رضي الله عنه . . وفيه «فرجع خالد ، فلما نظرت إليه السدنة - وهم حُجَّابها - أمعنوا في الجبل ، يقولون : ياعُزَّى خبِّليه ، ياعزى عوِّريه » [2]وإلا فموتي برَغْم» [3] .

٣ - أخرج الواقدي من حديث سعيد بن عمرو الهذلي قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بث السرايا . . إلى أن قال : وبعث عمرو بن العاص إلى صنم هُذيل - سُواع - فهدمه ، فكان عمرو يقول : انتهيت إليه وعنده السادن ، فقال : ماتُريد ؟ فقلت : هَدْم سُواع . فقال : مالك وله؟ فقلت : أمرني رسول الله ﷺ ! قال : لاتقدر على هَدْمه . قلت : ولمَ ؟ قال : يمتنع . قال عمرو : حتى الآن أنت في الباطل ! ويحك هل يسمع أو يُبصر ؟ قال عمرو : فدنوت إليه فكسرته، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته ، ولم يجدوا فيها شيئًا ، ثم قال للسادن : كيف رأيت؟ قال : أسلمت لله .

ثم نادى مُنادي رسول الله ﷺ بمكة : من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدَعنَّ في بيته صنَمًا إلا كسره . قال : فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٧٩ - ٨٠ .

(٢) أي أصيبيه بعقله وجسمه .

(٣) دلائل النبوة ٥/ ٧٧ .

وكان عكرمة بن أبي جهل حين أسلم لايسمع بصَنَم في بيت من بيوت قريش إلا مشى إليه حتى يكسره [1] .

٤ - قال محمد بن سعد رحمه الله تعالى :

قالوا : بعث رسول الله ، ﷺ حين فتح مكة سعد بن زيد الأشهلي إلى مَناة ، وكانت بالمُشَلَّل للأوس والخزرج وغسّان . فلما كان يوم الفتح بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي يهدمها فخرج في عشرين فارسًا حتى انتهى إليها وعليها سادن ، فقال السادن : ماتريد؟ قال : هدْمَ مَناة ! قال : أنت وذاك ! فأقبل سعد يمشي إليها وتخرج إليه امرأة عُريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها ، فقال السادن : مَناة دونَك بعْضَ غضباتك ! ويضربها سعد بن زيد الأشهلي وقتلها ويُقبل إلى الصنم معه أصحابه فهدموه ولم يجدوا في خزانتها شيئًا وانصرف راجعا إلى رسول الله ﷺ ، وكان ذلك لستّ بقين من شهر رمضان [2] .

في هذه الأخبار مواقف وعبر منها :

أولا : مبادرة النبي ﷺ إلى إزالة معالم الوثنية منذ أن قدر على إزالتها لأن الدعوة إلى التوحيد مع بقاء معالم الشرك لاتنفع إلا قليلا ، حيث لايتأثر بالدعوة إلا قلة من الناس ، فإن السواد الأعظم منهم قد تعلقت قلوبهم بمعالم الوثنية التي توارثوا تقديسها ، وتحُول بينهم وبين التأثر بدعوة الحق .

لقد شاهد الكفار أصنامهم التي ورثوا تعظيمها كابرًا عن كابر وهي

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٦٩ - ٨٧٠ . وانظر طبقات ابن سعد ٢/ ١٤٦ .

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ١٤٦ - ١٤٧ .

تَهْوي وتتحول إلى حطام من الحجارة والخشب ، وثبت لكل ذي عقل سليم أنها لاتضر ولاتنفع ، وإنما هي مجرد وسائل يتلبس بها شياطين الإنس والجن ليهيمنوا بها على قلوب الناس .

كان شياطين الإنس يحرسون هذه الأصنام ويقاتلون دونها ، لأنها كانت تؤمِّن لهم سلطة روحية على الناس ، وباسمها يشرعون للناس على حسب ماتمليه عليهم أهواؤهم المنحرفة .

وكان شياطين الجن يستترون وراء هذه الأصنام فيخاطبون عابديها أحيانًا ، ويقضون لهم بعض حوائجهم التي هي في مقدورهم مقابل عبادتهم إياهم ، كما جاء في رواية أخرجها الإمام البيهقي عن ابن أبزَى قال : لما افتتح رسول الله ﷺ مكة جاءت عجوز حبشية شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل ، فقال : « تلك نائلة أيسَتْ أن تعبد ببلدكم هذا أبدا » (١) .

ونائلة اسم صنم حول الكعبة ، فهذا دليل على أن المعبودين حقيقة هم شياطين الجن ، وقد ماتوا كمدا وحسرة حينما فتحت مكة وانقطع الناس عن عبادتهم ، وزالت الأصنام التي كانت وسائط بينهم وبين الناس .

ومما يدل أيضًا على أن شياطين الجن كانوا من وراء الأصنام اعتمادًا على سذاجة بعض الإنس ماجاء في الخبر الثاني الذي فيه أن خالد بن الوليد رضي الله عنه هدم العزى فخرجت له امرأة من الجن فقتلها وكذلك ماجاء في الخبر الرابع الذي فيه أن سعد بن زيد الأشهلي رضي

(١) دلائل النبوة ٥/ ٧٥ .

الله عنه خرجت له امرأة من الجن من صنم مناة فقتلها .

وهكذا تبين لنا كيف أن أولئك العرب في جاهليتهم كانوا يركعون ويتذللون لنساء من الجن . . فما أحقر العقول وأهونها حينما تكون بعيدة عن الله تعالى !

لقد كانوا مجتمعين بمالَهُم من قوة ومنعة لايستطيعون أن يتفوهوا بكلمة سوء لهذه الأصنام خوفا من أن تضرهم بينما يستطيع القضاء عليها رجل واحد من الموحدين كما فعل خالد وسعد رضي الله عنهما .

فما أعلى هذا الأفق الذي رفع الناسَ إليه رسولُ الله ﷺ بدعوة التوحيد ! !

وما أبلغ هذا المستوى الفكري الذي وصل إليه المسلمون بهذه الدعوة ! !

إنها الدعوة السامية التي تهدف إلى إعتاق الفكر البشري وتحريره من قيود الجاهلية الخانقة لينطلق في ساحات الإيمان الرحيبة فيضع الأمور في مواضعها ، ويقدر الله تعالى حق قدره ، ويعطي لكل كائن حي ما يلائم تكوينه الذي خلقه الله عليه .

* * *

٢٠ – مثل من عفو النبي ﷺ وحلمه ودعوته –
(خبر فضالة بن عمير وإسلامه)

قال ابن هشام : وحدثني [١] أن فضالة بن عُمير بن المُلَوّح الليثيَّ أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عامَ الفتح ، فلما دنا منه ، قال رسول الله ﷺ : أفَضالة ؟ قال : نعم فضالة يارسول الله ، قال : ماذا كنت تحدّث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، قال : فضحك النبي ﷺ ، ثم قال : استغفر الله ، ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله مارفع يده عن صدري حتى مامنْ خلق الله شيٌ أحبُّ إليّ منه . قال فضالة : فرَجعت إلى أهلي ، فمررت بامرأة كنت أتحدّث إليها ، فقالت : هَلمَّ إلى الحديث ، فقلت : لا ، وانبعث فَضالة يقول :

قالت هَلُمَّ إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك اللهُ والإسلامُ

لو مارأيت محمداً وقَبيله ... بالفتح يومَ تكسَّر الأصْنامُ

لرأيت دينَ الله أضْحَى بَيِّنًا ... والشِّركَ يغشى وجهَه الإظلامُ [٢]

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : ما اشتمل عليه من أخلاق النبي ﷺ العالية في العفو والتسامح والحلم حيث واجه من كان يريد قتله بالبشاشة وعفا عنه وتوجه لدعوته إلى الإسلام الحق .

إن الذي كان يشغل بال النبي ﷺ هو أن يهدي الله تعالى على يديه

---

(١) يعني من يثق به ، فالضمير يعود على ماذكره في الرواية السابقة .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/٤٨ – ٤٩ .

أكبر قدر ممكن من البشر ، وكانت هذه المهمة تطغى في حياته على كل أمر دنيوي ، ولهذا حينما علم بما كان يضمره فضالة من إرادة الفتك به لم يُلْق لأمر حمايته منه بالا ، ولم يشغل فكره بكيفية الانتقام منه ، وإنما توجه فكره حالاً لمحاولة هدايته من الضلال .

ولقد كان لمظهر النبي ﷺ وهو يبتسم له ويأمره بالاستغفار مع شعوره بأنه قد عرف مقصده وما يتضمنه ذلك من حلم النبي ﷺ وعفوه عنه أثر ظاهر في محو كل أثر للشرك والكراهية من قلب فضالة إلى جانب بركة يد النبي ﷺ التي وضعها على صدره ، لقد تحول أبغض الناس إليه إلى رجل هو أحب الناس إليه في لحظات يسيرة ، وماذاك إلا لأنه ﷺ عامله بأعلى ما يُتصوَّر من مكارم الأخلاق من الحلم والعفو والبشاشة ، في الوقت الذي كان يتوقع لو انكشف أمره أن يعامل بأقسى مايمكن أن يُتصوَّر من المعاملة .

ثانيًا : موقف فضالة بن عميرا الليثي رضي الله عنه في الورع والاستقامة رغم حداثة عهده بالإسلام فقد رفض أن يتحدث مع تلك المرأة التي كان يتحدث إليها قبل إسلامه وأشعرها بأن ذلك لا يحل له في الإسلام .

لقد كان إسلامه قويا وإيمانه صادقا حيث تكوَّن لديه بهذه السرعة الوازع الديني الذي جعله يرفض الاستجابة للحرام إجلالاً لله تعالى ولشرف الشهادتين اللَّتين نطق بهما عن يقين وقناعة .

وهذا مثل ظاهر على أثر إيمان الصحابة رضي الله عنهم البالغ في سلوكهم ومعاملتهم مع الناس .

* * *

٢١ – مواقف عالية لرسول الله ﷺ في الدعوة –

١ – إسلام سهيل بن عمرو –

قال الواقدي : فحدّثني موسى بن محمد ، عن أبيه ، قال : قال سُهَيل بن عمرو : ولمّا دخل رسول الله ﷺ مكة وظَهَر ، انقحمتُ[(١)] ببيتي وأغلقتُ عليّ بابي ، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سُهيل[(٢)] أن اطلب لي جواراً من محمد ، وإني لا آمن أن أُقتل ، وجعلتُ أتذكَّر أثري عند محمد وأصحابه ، فليس أحدٌ أسوأ أثراً مني ، وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحُديبية بما لم يلقه أحدٌ ، وكنت الذي كاتبتُه ، مع حُضوري بدراً وأحُداً ، وكلما تحرَّكتْ قريش كنت فيها .

فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، تُؤمّنه ؟ فقال : نعم ، هو آمنٌ بأمان الله ، فليظهر ! ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله : من لقي سُهيل بن عمرو فلا يَشُدُّ النَّظرَ إليه . فليخرج ، فلعَمري إنّ سهيلاً له عَقْلٌ وشَرَف ، وما مثل سُهيل جَهلَ الإسلام ، ولقد رأى ما كان يُوضع فيه أنه لم يكن له بنافع ! فخرج عبد الله إلى أبيه

(١) أي رميت بنفسي .

(٢) هو عبد الله بن سهيل بن عمرو رضي الله عنهما أسلم قديما وهاجر إلى الحبشة في المرة الثانية ، ثم قدم مكة للهجرة إلى المدينة فحبسه أبوه ، فأظهر له الرجوع إلى دينه والشدة على المسلمين حتى أخرجه معه إلى بدر في نفقته وحملانه وهو لايشك أنه على دينه ، فلما تواقفوا إنحاز إلى المسلمين قبل القتال ، فغاظ ذلك أباه ، ثم كان يقول بعد إسلامه حين أسلم يوم فتح مكة : لقد جعل الله لي في إسلام ابني عبد الله خيراً كثيراً ، استشهد في معركة جُوائَى في البحرين أيام الردة وله ثمان وثلاثون سنة ، فلقي سهيل أبا بكر رضي الله عنه فعزاه أبو بكر فقال سهيل : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « يشفع الشهيد في سبعين من أهله » وأنا أرجو أن لايُقَدِّم عليَّ ابني أحدا – أنساب الأشراف ١/ ٢٥٢ – .

فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ ، فقال سُهَيل : كان والله بَرّاً ، صغيراً وكبيراً! فكان سُهيل يُقبل ويُدبر ، وخرج إلى حُنَين مع النبي ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرَّانة (١) .

وهكذا كان رسول الله ﷺ يعرف الرجال ويقدر كرام القوم، ولقد عرف مادخل أصحابَه من الغل على سهيل بن عمرو حيث كان هو الذي تولى عقد ذلك الصلح الجائر يوم الحديبية الذي بسببه مُنع المسلمون من العمرة في ذلك العام ، فخشي ﷺ أن ينظر إليه الصحابة نظرات جارحة، فيكون ذلك سببا في تمنُّعه من الإسلام ، فأمر أصحابه أن لا ينظروا إليه نظرات حادَّة ، ووصف سهيلا بالعقل والشرف، وبَنَى على ذلك أن من كان في مثل عقله وشرفه فإنه لايجهل الإسلام .

لقد كان لهذه الكلمات التربوية العالية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو حيث أثنى على رسول الله ﷺ بالبر طوال عمره ، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك .

إن هذا السلوك العالي من رسول الله ﷺ في معاملة سهيل يعتبر قدوة عليا للدعاة من بعده وخاصة القادة منهم ، وذلك في سلوك السبل التي تسُلُّ سخائم الصدور وترفع الحرج عن الأعزة الأكابر الذين وقعوا في شيء من الذل حتى لايتعرضوا لجرح المشاعر .

لقد نهى رسول الله ﷺ الصحابة أن يشفوا غليلهم من سهيل بالنظرات الحادة ، لاحتمال أن يقع ذلك من بعضهم مادام سهيل على كفره، لأن هذا الأمر هو الذي يقدرون عليه، إذ أنهم لايقدرون على

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٤٦ - ٨٤٧ ، وانظر المستدرك للحاكم ٣/ ٢٨١ .

قتله ، ولا على إيذائه بأكثر من ذلك وهو في الأمان ، فنهاهم عن ذلك لأنه يريد كسبه للإسلام ، وكسبُ مثله يعني كسب الكثيرين ممن ألفوا التبعية للأكابر .

وبهذا وأمثاله كان رسول الله ﷺ في أعلى قمم الدعوة إلى الله تعالى .

هذا وقد حسن إسلام سهيل بن عمرو ، وكان مكثرا من الأعمال الصالحة ، يقول الزبير بن بكار : كان سهيل بعدُ كثير الصلاة والصوم والصدقة ، خرج بجماعته إلى الشام مجاهدا ، ويقال : إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير ، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن ، وكان أميرا على كردوس [1] يوم اليرموك [2] .

وسيأتي بيان موقفه العظيم يوم وفاة النبي ﷺ حيث ثبَّت الله تعالى به أهل مكة ، فرحمه الله رحمة واسعة .

* * *

---

(١) أي فرقة كبيرة .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ١٩٥ .

٢ - إسلام صفوان بن أمية -

أخرج الواقدي من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : وأما صَفوان بن أُمية ، فهرب حتى أتى الشُّعَيبة(١) . وجعل يقول لغلامه يسار وليس معه غيره : وَيْحك ، انظر مَن ترى ! قال : هذا عُمَير بن وَهب . قال صَفوان : ما أصنع بعُمَير؟ والله ماجاءَ إلا يُريد قتلي، قد ظاهر محمدًا عليّ . فلحقه فقال : ياعمير ، ماكفاك ماصنعت بي؟ حمّلتني دَينك وعيالك ، ثم جئت تُريد قتلي ! قال : أبا وَهْب، جُعلتُ فداك! جئتك من عند أبرّ الناس وأوصل الناس . وقد كان عُمير قال لرسول الله ﷺ : يارسول الله ، سيد قومي خرج هاربًا ليقذفَ نفسه في البحر ، وخاف ألا تُؤمِّنه ، فأمِّنه فداك أبي وأمّي ! فقال رسول الله ﷺ : قد أمنته .

فخرج في أثره ، فقال : إنَّ رسول الله ﷺ قد أمّنَك . فقال صفوان: لا والله ، لا أرجع معك حتى تأتيني بعَلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، جئت صَفوان هاربًا يُريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنتَه : فقال : لا أرجع حتى تأتي بعَلامة أعرفها، فقال رسول الله ﷺ : خذ عمامتي .

قال : فرجع عُمَير إليه بها ، وهو البُرْد الذي دخل فيه رسول الله ﷺ

(١) الشعيبة : مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز ، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة (معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٧٦)، وهو معروف الآن بهذا الاسم .

يومئذ مُعتجراً [1] به ، بُرْد حبَرَة[2] . فخرج عُمير في طلبه الثانية ، حتى جاء بالبُرْد فقال : أبا وَهْب ، جئتك من عند خير الناس ، وأوصل الناس ، وأبرّ الناس . وأحلم الناس ، مَجْده مَجْدك ، وعزه عزُّك ، ومُلْكه مُلْكك . ابن أمك وأبيك . أذكرك الله في نفسك . قال له : أخاف أن أقتَل . قال : قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام ، فإن رضيت وإلا سيّرك شهرين ، فهو أوفى الناس وأبرُّهم . وقد بعث إليك ببُرْده الذي دخل به معتجراً ، تعرفه ؟ قال : نعم . فأخرجه ، فقال : نعم ، هو هو ! فرجع صَفوان حتى انتهى إلى رسول الله ، ورسول الله ﷺ يُصلّي بالمسلمين العصر في المسجد ، فوقفا . فقال صفوان : كم تُصلُّون في اليوم والليلة ؟ قال : خمس صلوات ، قال : يُصلّي بهم محمد؟ قال : نعم . فلما سلَّم صاح صَفوان : يامحمد ، إنَّ عُمير بن وهب جاءني ببُرْدك ، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك . فإن رضيت أمراً وإلا سيّرتَني شهرين . قال : انزل أبا وَهب . قال : لا والله ، حتى تُبين لي . قال : بل تُسيَّر أربعة أشهر ، فنزل صفوان .

وخرج رسول الله ﷺ قبَلَ هوازن ، وخرج معه صَفوان وهو كافر ، وأرسل إليه يستعيره سلاحه ، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها ، فقال : طوْعًا أو كَرْهًا ؟ قال رسول الله ﷺ : عارية مُؤَدّاة ، فأعاره ، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حُنين ، فشهد حُنينا والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ، فبينا رسول الله يسير في الغنائم ينظر إليها ، ومعه

---

(١) الاعتجار بالعمامة : هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولايعمل منها شيئًا تحت ذقنه (النهاية ، ج٣ ، ص ٦٩) .

(٢) الحبرة : ضرب من ثياب اليمن . (شرح أبي ذر ، ص ٣٦٩) .

صفوان بن أمية ، جعل صفوان ينظر إلى شعْب مُلِئ نَعَمًا وشاءً ورعاءً ، فأدام إليه النظر ، ورسول الله ﷺ يرمقه فقال : أبا وهب ، يُعجبك هذا الشِّعْب ؟ قال : نعم . قال : هو لك ومافيه . فقال صفوان عند ذلك : ماطابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبيّ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله ! وأسلم مكانَه (١) .

وأخرجه ابن إسحاق من حديث عروة بن الزبير وذكر نحوه (٢) .

في هذا الخبر موقف دعوي جليل لرسول الله ﷺ فقد حاول أن يتألف صفوان بن أمية إلى الإسلام حتى أسلم ، وذلك بإعطائه الأمان أولاً ثم بتخييره في الأمر أربعة أشهر ، ثم بإعطائه من المال العطايا الكبيرة التي لاتصدر من إنسان عادي ، فأعطاه أولاً مائة من الإبل مع عدد من زعماء مكة ثم أعطاه مافي أحد الشعاب من الإبل والغنم فقال : ماطابت نفس أحد بهذا إلا نفس نبي ، ثم أسلم مكانه .

هذا الرجل الذي عمل الأعمال الكثيرة في عداء الإسلام ومحاولة اغتيال النبي ﷺ يكافئه الرسول ﷺ بهذه الأعطيات الجزيلة ، ويتناسى كل أعماله السابقة ، ويهتم بشيء واحد هو أن يدخل في الإسلام لأنه زعيم قومه ، وبإسلامه سيسلم من لم يسلم بعد من بني جمح ، حتى نجح أخيرا في جذبه إلى الإسلام بشيء اعترف هو بأنه لايصدر إلا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٥٣ - ٨٥٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٤٩ - ٥٠ .

وهكذا رأينا مثلا من اهتمام النبي ﷺ الكبير بدعوته وبذل المحاولات المتعدده من أجل هداية الناس إلى الإسلام .

وفي وصف عطاء النبي ﷺ لصفوان وتأثر صفوان بذلك يقول عن نفسه : والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي» أخرجه الإمام مسلم[1] .

* * *

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل رقم ٢٣١٣ (ص ١٨٠٦) .

٣ - إسلام عكرمة بن أبي جهل -

أخرج الواقدي بإسناده إلى عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: قالت أمّ حَكيم امرأة عكْرمة بن أبي جهل: يارسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تَقتله فأمِّنْه، فقال رسول الله ﷺ: هو آمن، فخرجت أمّ حكيم في طلبه ومعها غلام لها روميّ، فراودها عن نفسها، فجعلت تُمنِّيه حتى قدمت على حَيّ من عَكّ[١]، فاستغاثتهم عليه فأوثقوه رباطًا، وأدركت عكْرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل نُوتيُّ السفينة يقول له: أخلصْ! فقال: أيّ شيء أقول: قال: قل لا إله إلا الله. قال عكْرمة: ماهربتُ إلا من هذا.

فجاءَت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تُلحّ إليه وتقول: ياابن عمّ، جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس، لاتُهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته فقالت: إني قد أستأمنت لك محمداً رسول الله ﷺ. قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمَّنك. فرجع معها وقال: مالقيت من غلامك الروميّ؟ فخبّرته خبره فقتله عكْرمة، وهو يومئذ لم يُسلم.

فلمّا دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: يأتيكم عكْرمة بن أبي جهل مُؤمنًا مُهاجرًا، فلا تَسُبّوا أباه، فإنّ سبّ الميّت يُؤذي الحي ولايبلغ الميت.

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يُجامعها، فتأبى عليه وتقول:

---

(١) عك: مخلاف من مخاليف مكة التهامية (معجم ما استعجم، ص ٢٢٣).

إنك كافر وأنا مُسلمة . فيقول : إنّ أمرًا منعك مني لأمرٌ كبير .

فلمّا رأى النبي ﷺ عكرمة وثب إليه - وماعلى النبي ﷺ رداء - فَرَحًا بعكرمة ، ثم جلس رسول الله ﷺ فوقف بين يديه ، وزوجته مُنتقبة ، فقال : يامحمد إن هذه أخبرتني أنك أمَّنتني . فقال رسول الله ﷺ : صدقت ، فأنت آمن ! فقال عكرمة : فإلى ماتدعو يامحمد ؟ قال : أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وأن تُقيم الصلاة ، وتُؤتي الزكاة - وتفعل ، وتفعل ، حتى عدّ خصال الإسلام .

فقال عكرمة : والله مادعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل ، قد كنتَ والله فينا قبل أن تدعو إلى مادعوتَ إليه وأنت أصدقنا حديثًا وأبرُّنا برّاً . ثم قال عكرمة : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . فسُرّ بذلك رسول الله ﷺ ، ثم قال : يارسول الله ، علمني خيرَ شيء أقوله . قال : تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله . قال عكرمة : ثم ماذا ؟ قال رسول الله ﷺ : تقول : أشهد الله وأُشهد من حضر أني مُسلمٌ مُهاجرٌ ومُجاهدٌ . فقال عكرمة ذلك .

فقال رسول الله ﷺ : لاتسألُني اليوم شيئًا أعطيه أحدًا إلا أعطيتكه ، فقال عكرمة : فإني أسألك أن تستغفر لي كلّ عداوة عاديتُكها ، أو مسير وَضَعْتُ فيه ، أو مقام لقيتك فيه ، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اغفر له كلّ عداوة عادانيها ، وكلّ مسير سار فيه إلى موضع يُريد بذلك المسير إطفاءَ نورك ، فاغفر له ما نال منّي من عرْض ، في وجهي أو وأنا غائب عنه ! فقال عكرمة :

رضيت يارسول الله . ثم قال عكرمة : أما والله يارسول الله ، لاأَدَعُ نفقة كنت أُنفقها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعْفها في سبيل الله ، ولا قتالاً كنت أُقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله .

ثم اجتهد في القتال حتى قتل شهيداً [1] .

فردّ رسول الله ﷺ امرأته بذلك النّكاح الأوّل [2] [3] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : مواقف عظيمة لرسول الله ﷺ في الدعوة والرغبة الشديدة في هداية الناس ، وخصوصا من لهم تأثير في قومهم ، فقد أعطى الأمان لعكرمة بن أبي جهل بالرغم من كونه ظل يقاتل المسلمين حتى آخر لحظة حينما دخل المسلمون مكة المكرمة .

ثم أخبر الصحابة رضي الله عنهم بأن عكرمة سيأتي مسلمًا مُهاجراً وقال : « فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولايبلغ الميت» ، وإن من أسوإ نتائج الأذى من ذلك أن يحصل من عكرمة تَمنّع من الإسلام بسبب ذلك .

وهكذا تنبَّه النبي ﷺ إلى أمر قد يقع فعمل الاحتياط له حتى يزيل أي عقبة تحول بين عكرمة والإسلام ، أو تجعله ضعيف الشخصية في الإسلام لما يحصل له من التذكير بالماضي الذي لايُشرِّف المسلم، وإذا

---

(١) يعني يوم اليرموك .

(٢) يعني بعد إسلامه .

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٨٥١ - ٨٥٣ .

ضعفت شخصية المسلم تضاءلت طاقته وضعف عطاؤه .

ومن ذلك قيامه ﷺ في استقبال عكرمة حتى أعجل نفسه عن أخذ ردائه من شدة فرحه بمجيء عكرمة ، وقال له كما جاء في بعض الروايات : « مرحبا بالراكب المهاجر »(١) .

إن هذا السلوك من رسول الله ﷺ يعتبر قمة في التواضع واللطف . .

إن قيامه لعكرمة مع كونه آنذاك كافراً يشبه قيامه لأعز أحبابه المسلمين ، وماذاك إلا ليمحو من نفس عكرمة أيَّ شعور يخالج فكره من الخوف والرهبة مما سيواجهه من السلوك الخشن والمعاملة الجافة من المسلمين بسبب ترسُّب أحداث الماضي في أفكارهم .

إن هذا السلوك اللطيف الحاني من رسول الله ﷺ نحو عكرمة يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام .

رجلٌ تراكمت في سجلٍّ تاريخه وتاريخ أبيه أحداث مُرَّة مؤلمة نحو رسول الله ﷺ والمسلمين ، ثم يَقْدُم عليهم بثياب الوَجل المتردد الذي ينتظر مواجهات ومعاملات مبنية على تراكمات الماضي ، فإذا به يفاجأ برسول الله ﷺ يقوم إليه مستقبلا قد أعجل نفسه عن لبس ردائه ، يبتسم له ويرحب به ترحيب من غُمر بفضائل من قام لاستقباله ! !

إنه موقف عظيم هائل . . لو جسِّم ثم وُجِّه إلى الجبال الراسيات

---

(١) ذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمام الطبراني بإسنادين قال عن أحدهما : مرسل ورجاله رجال الصحيح ، وقال عن الآخر : رجاله رجال الصحيح إلا أن مصعب بن سعد لم يسمع من عكرمة - مجمع الزوائد ٩/ ٣٨٥ - ، وانظر - تاريخ المدينة المنورة لابن شبة ٢/ ٤٩٨ - .

لفتَّتها ، فكيف لا يؤثر في الإنسان الذي يملك الأحاسيس والمشاعر ؟! .

لقد أسلم عكرمة رضي الله عنه حالاً من حين أن عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، وأثنى على النبي ﷺ من قبل أن يبعث رسولا .

ثانيًا : موقف أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة التي أخذت لزوجها الأمان من رسول الله ﷺ ، ثم غامرت بنفسها فخرجت تبحث عنه لعل الله يهديه إلى الإسلام الذي هداها إليه ، خرجت إلى البحر وليس معها إلا غلامها الرومي الذي خان الأمانة معها فأخذته بالسياسة والحكمة حتى وجدت قوما منعوها منه ، ثم سارت حتى أدركت عكرمة على السفينة ، فأنقذته من الضلال والهلاك بإلحاحها وأسلوبها المؤثر حتى رجع معها إلى رسول الله ﷺ .

وحينما أرادها زوجها امتنعت منه وعللت ذلك بأنه كافر وهي مسلمة ، فعظُم الإسلام في عينيه وأدرك أنه أمام دين عظيم .

هذه المرأة المُحبَّة لزوجها التي غامرت بنفسها وعرَّضتها للهلاك من أجله تمتنع منه بالإسلام ! .

إنه دين عظيم يحمل معتنقيه على مقاومة أهوائهم التي تتنافى مع تشريعاته .

إن دينًا يصل بالمرأة إلى أن تمتنع من زوجها لايمكن أن يكون من وضع البشر ، لأن مفكري البشر حريصون على أن يحققوا للبشر رغباتهم وإن كانت جامحة عن سَنَن الاعتدال .

إنه دين أعظم من ذلك . . إنه لايمكن أن يكون إلا الدين الإلهي . .

كل ذلك توحيه كلمة عكرمة . . إن أمرًا مَنَعَك مني لأمر كبير .

وهكذا تَخَطُّ أم حكيم في فكر عكرمة بداية التفكير في الإسلام .

إنها رضي الله عنها امرأة عظيمة مجاهدة وفيَّة لزوجها ، قوية في تمسكها بدينها رغم حداثة إسلامها .

ثالثًا : كان عكرمة رضي الله عنه صادق الإسلام قوي الإيمان من حين أن أسلم ، ولذلك لما برَّه النبي ﷺ بتحقيق مطلبه في أي شيء يريده مما أعطاه غيره لم يسأله دُنيا ، وإنما سأله أن يستغفر الله تعالى له في كل ما وقع فيه من ذنوب ماضية .

ثم أقسم أمام النبي ﷺ بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعْف ماكان ينفق في الجاهلية ، وأن يُبْليَ في الجهاد في سبيل الله بضعف ماكان يبذله في الجاهلية .

وهذا دليل على صدقه وإخلاصه ، ولقد صدق في وعده فكان من أبرز المجاهدين والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردة ثم في حروب الروم حتى وقع شهيدًا في معركة اليرموك بعدما أبلى بلاء عظيما رضي الله عنه .

* * *

٤ - إسلام هبَّار بن الأسود -

قال الواقدي : حدثني هشام بن عُمارة ، عن سعيد بن محمد بن جُبير بن مُطعم ، عن أبيه ، عن جده قال : كنت جالسًا مع النبي ﷺ في أصحابه في مسجده ، مُنْصَرَفَه من الجعرانة ، فطلع هبار بن الأسود من باب رسول الله ﷺ . فلما نظر القوم إليه قالوا : يارسول الله هَبّار بن الأسود! قال رسول الله ﷺ : قد رأيته ، فأراد بعض القوم القيام إليه ، فأشار النبي ﷺ أن اجلس ، ووقف عليه هَبّار فقال : السلام عليك يارسول الله ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ولقد هربتُ منك في البلاد وأردت اللُّحوق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وفضلك وبرّك وصفحك عمّن جَهل عليك ، وكنا يارسول الله أهل شرك، فهدانا الله عزّ وجلّ بك ، وأنقذنا بك من الهَلَكَة ، فاصفح عن جهلي وعمّا كان يبلغك عنّي ، فإني مُقرّ بسوء فعلي، مُعترف بذنبي . فقال رسول الله ﷺ : قد عفوتُ عنك ، وقد أحسن الله بك حيث هداك للإسلام، والإسلام يَجُبُّ ماكان قبله .

وأخرجه من طريق آخر عن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وفيه قال الزبير : فجعلت أنظر إلى النبي ﷺ وإنه ليطأطئ رأسه استحياء مما يعتذر هبار [١] .

فهذا الخبر فيه موقف لرسول الله ﷺ في العفو والتسامح ، فهبَّار بن الأسود هو الذي أشار بالرمح إلى زينب بنت رسول الله ﷺ وهي مهاجرة فأسقطت حملها وقد تأثر النبي ﷺ كثيراً من إساءته تلك .

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٨٥٨ - ٨٥٩ .

ويشاء الله أن يأتي إلى النبي ﷺ مسلما ويعتذر إليه بهذه الكلمات الرقيقة فيتأثر النبي ﷺ من اعتذاره ويطأطئ رأسه حياء من هبار ، من شدة تواضعه في الاعتذار ، ويجيبه بالعفو عنه وتهنئته بالإسلام .

فما أعظم أخلاق النبي ﷺ الذي حوَّله الاعتذار الرقيق إلى التأثر حياء من ظالمه الذي كان سابقا قد تأثر من إساءته !!

* * *

٢٢ – موقف لهند بنت عتبة –

قال الواقدي: حدّثني عبد الله بن يزيد، عن أبي حُصَين الهُذَليّ، قال: لمّا أسلمت هند بنت عُتبة أرسلت إلى رسول الله ﷺ بهدية – وهو بالأبطَح – مع مولاة لها، بجَدْيين مرْضوفَين[1] وقَدٍّ[2]. فانتهت الجارية إلى خَيْمة رسول الله ﷺ فسلَّمت واستأذنت، فأذن لها فدخلت على رسول الله ﷺ، وهو بين نسائه أم سلمة زوجته وميمونة، ونساء من نساء بني عبد المطلب، فقالت: إنَّ مولاتي أرسلت إليك بهذه الهدية، وهي مُعتذرة إليك وتقول: إنَّ غَنَمنا اليوم قليلة الوالدة، فقال رسول الله ﷺ: بارك الله لكم في غنمكم، وأكثر والدتَها.

فرجعت المولاة إلى هند فأخبرتها بدعاء رسول الله ﷺ فسُرَّتْ بذلك، فكانت المولاة تقول: لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتنا مالم نكن نَرَى قبلُ ولا قريبًا، فتقول هند: هذا دُعاءُ رسول الله ﷺ وبركته، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام! ثم تقول: لقد كنت أرى في النوم أني في الشمس أبدًا قائمة، والظلّ منِّي قريبٌ لا أقدر عليه، فلمّا دنا رسول الله ﷺ منَّا رأيت كأني دخلت الظلّ[3].

في هذا الخبر موقف كرم من هند بنت عتبة بن ربيعة رضي الله عنها سليلة بيت الكرم، حيث أهدت إلى رسول الله ﷺ تلك الهدية مع الاعتذار بأن غنمهم في ذلك الوقت قليلة الولادة.

---

(١) أي مشويين على الحجارة وهي الرضف.

(٢) القَدُّ جلد السخلة.

(٣) مغازي الواقدي ٢/ ٨٦٨ – ٨٦٩.

وقد كسبت هند أكثر مما جادت به حيث كسبت دعوة النبي ﷺ لغنمهم بالبركة ، فلاحظوا بعد ذلك كثرة واضحة في غنمهم ببركة دعاء النبي ﷺ .

* * *

٢٣ - اهتمام النبي ﷺ بإقرار العدالة - (خبر المخزومية التي سرقت)

أخرج الإمام البخاري من حديث عروة بن الزبير « أن امرأةً سرقَت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح ، ففزع قومُها إلى أُسامة بن زيد يستشفعونه . قال عروةُ : فلما كلمهُ أسامةُ فيها تَلوَّنَ وجهُ رسول الله ﷺ فقال : أتكلمُني في حدٍّ من حدود الله ؟ قال أُسامة استغفر لي يارسول الله . فلما كان العشيُّ قام رسولُ الله ﷺ خطيبًا فأثنى على الله بما هوَ أهله ثم قال : أما بعدُ فإنما أهلَكَ الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريفُ تركوهُ ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ . والذي نفسُ محمد بيده ، لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرَقَت لقطعتُ يدها . ثمَّ أمر رسولُ الله ﷺ بتلك المرأة فقُطعت يدُها . فحسُنَت توبتها بعد ذلك وتزوَّجَت .

قالت عائشة : فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفعُ حاجتَها إلى رسول الله ﷺ[1] .

هذا الحديث من الأمثلة التي تدل على اهتمام النبي ﷺ بإقرار العدالة بين الناس ، وتطبيق الحدود الإسلامية على جميع المسلمين كبيرهم وصغيرهم .

إنه موقف عظيم للنبي ﷺ أمام مدخل خطير للانحراف الذي يؤدي في نهايته إلى تعطيل إقامة الحدود ، ومن ثمَّ سيادة الفوضى والجرائم في المجتمع ، وقد بين النبي ﷺ أن التفريق بين الأكابر والضعفاء في تطبيق

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٣٠٤ (٨/ ٢٤ - ٢٥) .

الحدود كان سبب هلاك الأمم من قبلنا ، وفي هذا تحذير بليغ لهذه الأمة من أن تسلك نفس هذه السبل المعوجة حتى لاتصل بها في النهاية إلى النتائج المشئومة نفسها ، ويزيد الأمر تأكيداً بالقَسَم على تطبيق الحدود حتى على أقرب الناس إليه فيما لو وقعت منه المخالفة ولو كان ذلك من ابنته العفيفة الطاهرة ، حتى لاتضعف نفوس الحكام عن تطبيق الحدود على أقاربهم .

وإن في هذا الموقف الذي أثار غضب النبي ﷺ الشديد واهتمامه الكبير لعبرةً للمسلمين حتى لايتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى ، أو يشفعوا لدى الحكام من أجل تعطيل الحدود الإسلامية .

* * *

تم بحمد الله تعالى الجزء السابع

ويليه الجزء الثامن وأوله

مواقف وعبر

في غزوة حنين وحصار الطائف

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة